الشيخ ملا رمضان البوطي

ولادته ونشأته وطلبه العلم

كانت ولادة أبي عام 1888 حسب سجلات قيد النفوس في قرية صغيرة اسمها (جيلكا) تابعة لجزيرة بوطان، التي يطلق عليها بالعربية اسم جزيرة ابن عمر، وهي داخلة في حدود تركيا، على مرمى النظر من بلدة عين ديوار السورية.

ولد من أبوين كرديين. اسم أبيه عمر واسم جده مراد، ولست اعلم أي تفصيل آخر عن نسبنا والأرومة التي ننتهي إليها، ولقد كنت أسأله عن بعض التفاصيل في ذلك، فكان يظهر لي عدم الاهتمام بهذا الأمر، مشيراً إلى ان من العسير أن يبين الإنسان مسار نسبه في ظلمات الماضي دون الوقوع في أخطاء .. وكان يطيب له أن يعرض عن التحقيق في هذا البحث الذي ربما بدا عويصاً، مستشهداً بقول ابن الوردي في لاميته المشهورة:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

مرحلة الطفولة:

كان جد والدي فلاحاً يمضي جل وقته في الحقول وأعمال الزراعة وأسبابها، ولم يكن أمام أولاده وأحفاده عملٌ خيرٌ لهم من ذلك، فما إن بلغ حفيده الصغير هذا مرحلة الصبا، وغدا ينشط مستقلاً ببعض شؤون نفسه، حتى بدأ يوجهه إلى مساعدته فيما يستطيع من اعمال الفلاحة وخدمة الأرض. وكان أبي يرى في ذلك فرصة لأنشطته اللاهية التي يتعلق بها الأطفال في تلك المرحلة ... غير أن والدته التي كانت كثيرة الصلاح والتقوى، كانت تصر على ان يوجَّه نحو الدراسة وطلب العلم، وقد استطاعت أن تقنع أخيراً زوجها بذلك.

يقول والدي رحمه الله: فبقيت مدة من الزمن أتقلب بين رغبة جدي في العمل معه في الحقل وخدمة الأرض، وإصرار أبوي على الدراسة والسير إلى طلب العلم، غير أني كنت أجد متعتي تلك الفترة في أن أُفْلَتَ من قيود الدرس والكتابة، وأنطلق لأعبث وألهو بين الحقول مع أمثالي من الصغار بحجة تلبية جدي في أن أعينه في أعمال الفلاحة. وكان مما يزيدني تبرماً بالدراسة التي

أرغمت عليها أن السبيل إليها كانت بدائية غير ميسرة، وأسباب الترغيب فيها معدومة .. لقد أرسل أبي إلى الجزيرة من يشتري لي قلماً وحبراً وأوراق كتابة، ولبثت انتظر دون جدوى .. ولما فوجئت بمن جاء يحمل إليّ قلم قصب ودواة الحبر وشيئاً من الورق، داخلتني الفرحة وتملكني سرور كبير من وصول هذه الأدوات النادرة إليّ، ودخولها، وأنا في سن الطفولة، في حوزتي.

كانت القرى الكردية في منطقة الاناضول تعاني من انتشار الجهل، والحاجة الماسة إلى الثقافة والمعرفة. وكانت المدارس الرسمية فيها قليلة جداً. غير ان الأكراد كانوا بمقابل ذلك تواقين إلى معرفة اللغة العربية والتزود من علوم الشريعة الإسلامية. فكانوا يتعاونون فيما بينهم على إنشاء سلسلة حجرات تكون على الأغلب تابعة لمسجد، يسمونها مدرسة، وهي أشبه ما تكون بهذا الذي يسميه الإيرانيون بالحوزات. وكانت هذه الحجرات تستقبل من يرغب أن ينقطع إلى طلب العلم ودراسة علوم اللغة العربية والدين. ويقوم بتدريس هؤلاء الطلاب علماء متطوعون يمارسون عملهم التعليمي المرهق بسعادة تامة، طبق نظام الحلقات التي تتابع على شيخ واحد. ويتكفل أهالي القرية بتقديم وجبات الطعام اللازمة إلى هؤلاء الطلاب وغسل ثيابهم وتقديم الخدمات اللازمة لهم، بسائق من الشعور بأنهم يقومون بواجب منوط بأعناقهم، دون ان يطوف بأذهانهم أي تصور لتفضل أو تمنن.

كانت قرى جزيرة ابن عمر تفيض بهذا النوع من المدارس، وكانت تعج بطلاب العلم، وكان على رأس تلك المدارس وأولئك الطلاب علماء أعلام، خرجتهم تلك المدارس وأمثالها.

وهكذا، فقد شاء الله تعالى أن ينفك أبي، منذ نعومة اظفاره، عن الفلاحة والعمل مع أبيه وجده في الأرض، وأن يتجه إلى تعلم الكتابة وقراءة القرآن، ثم يلتحق بإحدى تلك المدارس التي أشرت إليها.

ولست على علم بتفصيل وقائع حياته الدراسية هذه، ولكني أعلم مما حدثني به أكثر من مرة، أنه تنقل في قرى متعددة ينتجع العلم في مدارسها، وأنه تتلمذ أكثر من شيخ في اكثر من مدرسة .. إذ كان يأخذ من كلٍ، حاجته التي يشعر بها. وتلك هي طريقة التلقي عن الشيوخ فيما مضى، قبل أن تحلّ الأنظمة الجامعية المقيَّدة محلّ الدراسة العلمية الطليقة.

وإني لأذكر الآن أسماء ثلاثة من الشيوخ الذين تلقى عليهم والدي رحمه الله، وكانت اماكنهم متفرقة. أحدهم: الشيخ محمد سعيد سيدا، وكان مشهوراً باسم: شيخ سيدا، ثانيهم سيد محمد الفنذكي، وكان والدي ينعته بالعلم والتواضع، وقد أتيح لي أن أراه في أواخر الأربعينات، وكان ماراً بدمشق متجهاً للحج إلى بيت الله الحرام، وثالثهم الملا عبد السلام، وكانوا يدعوه دائماً بـ: سيداي ملا عبد السلام، أي أستاذي ملا عبد السلام.

اشتراكه في الحرب العالمية الأولى . . زواجه وحجه إلى البيت الحرام

الحرب العالمية الأولى واشتراكه فيها:

عندما قامت الحرب العالمية الأولى عام 1914، كان قد عاد أبي من رحلة طلب العلم، واستقر به المقام في مسقط رأسه، قرية جيلكا، إماماً في مسجدها ومدرساً لطلاب العلوم الشرعية في المدرسة التابعة له.

أخذ يفكر طويلاً في تلك الحرب التي اشتعل أوارها، والتي كانت تهدف إلى القضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة .. ونظر فرأى أنها على تشعّبها وتعدد الأخطاء فيها، إنما يتجه الخطر الأكبر فيها إلى العالم الإسلامي، من جهة روسيا التي كانت تهدف إلى التهام أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية، ومدّ سلطان الحكم القيصري عليها .. فتأكد له من ذلك أن المسلمين يواجهون في شتى أقطارهم، تلك الحالة التي تستوجب النفير العام للذود عن حمى الإسلام وبلاد المسلمين.

وما لبث أن تطوع مجاهداً في تلك الحرب، وكان عليه أن يتكلف معظم نفقاتها .. وبعد تدريب سطحي سريع في بعض المعسكرات القريبة، تم الاتجاه بمجموعته إلى جهات من حدود روسيا مما يلي (وان) و (بتليس) ومناطق البحر الأسود.

كان اشتراكه في تلك الحرب تجربة فاشلة وقاسية، فيما كان يحدثنا به.

قال لي: كنت أظن أنني بخروجي من تلك الحرب، أحقق عملاً جهادياً يؤجرني الله عليه، ولكني رأيتني أتعرض بدلاً عن ذلك لتقصير في أهم الواجبات وأصول العبادات. كان الضابط المسؤول عنا يضيق ذرعاً بقيامي إلى الصلاة، وحاول أكثر من مرة أن يمنعني عن القيام بهذا الركن الأساسي في الدين. مما اضطرني أن أقول له: إنني لست جندياً موظفاً في معسكرك، إنني متطوع للقيام بواجبي الجهادي هذا، ومتحمل تكاليف ذلك، دون أي منّة منكم، ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فبأي حق تمنعني من أن أؤدي أوامر الله الذي لم أشترك معكم في المجيء إلى هذا المكان إلا لمرضاته؟!

ويصف أخلاق كثير من الجنود والضباط، بالابتعاد عن الاستقامة والانهماك في المعاصي، وربما الفواحش .. يقول: وربما سألت احدهم عن اسم رسوله المرسل من قبل الله إليه، فلا يعلم ..!

لست أدري المدة التي امضاها متطوعاً في تلك الحرب، ولكنّ الذي أعلم أنه مُنِيَ من تلك الحرب بخيبة أمل مريرة، وأيقن أن مصير الخلافة الإسلامية إلى زوال؛ ذلك لأن العناوين الكبيرة لم تكن يوماً لتشكل حصوناً للأمة بدلاً من الاستقامة على الرشد والتحلي بمكارم الأخلاق.

أما القسوة التي عاناها من تلك الحرب، فيقول والدي رحمه الله: كان توجهنا إلى وان وبتليس في قُرّ الشتاء، ولم يكن الجيش يمدّنا بأغطية كافية، حتى ولا غير كافية، للتقي من شدة البرد والصقيع المتجمد من تراكم الثلوج، لقد كان عليّ أن أعتمد على ردائي الثقيل وحده في الليل والنهار، وربما اضطررت أحياناً إلى أن أعيره لغيري من ذوي الضرورات الأشد. فأبقى دون رداء ولا غطاء ... ويقول رحمه لله: إن روماتيزم الأعصاب الذي لا أزال أعاني منه منذ أمد طويل، إنما اهتاجت أسبابه لديّ منذ تلك الأيام التي كان يلفحني فيها برد قارس شديد، وسط الثلوج التي كانت تغوص فيها قدماي لساعات طويلة أثناء المسير.

الانتقال إلى الحياة الزوجية:

لست أدري أكان زواج أبي قبل خروجه مشتركاً في هذه الحرب، أم كان بعد عودته منها.

المهم أنه في هذه الفترة تحول من العزوبة إلى الحياة الزوجية، وخطب فتاة من قريباته، هي والدتي التي اسمها مَنْجِى. ولست أعلم إلا النزر القليل من أخبار خطبته وزواجه. ولكن أمّي كانت تحدثني عن مظهره وأناقته في شبابه، ويبدو أن من أهم ما كان يزيدها إعجاباً به، أيام الخطبة، اهتماماته الدينية المتميزة. فلقد كان مصدر رضاً وغبطة لها .. كانت ترمقه بإعجاب، وهو يجلس طويلاً أمام ما يشبه متنزهاً مجاوراً للدار، يتلو القرآن ويكرر محفوظاته منه.

وعلى كل فإن الحياة الزوجية لم تصْفُ لهما عن الشوائب، فقد كان رحمه الله منصرفاً بجلّ اهتماماته إلى العلم ودروسه ورعاية حال الطلاب. وقد كنت أوضحت أن نظام التدريس عند

الأكراد يقوم على الحلقات الكثيرة المتوالية، التي يتعاقب عليها الجماعات من الطلاب، وربما لم يكن في الحلقة الواحدة إلا طالب واحد.

لعل من أهم الأمور التي شغلت بال والدي وأزعج أمي، أنه لم يكن يعيش لهما طفل. فما يرزقان طفلاً حتى يتخطفه الموت منهما بعد حين. ولما ولد لهما آخر طفل – لا أدري بعد كم سنة من الزواج – وهو كاتب هذه الأسطر، حمله أبي ومضى به إلى واحد من شيوخه، كان كثير الإجلال له والاعتقاد بصلاحه، وهو الشيخ سعيد المشهور بلقب: شيخ سيدا. ويبدو أنه دعا لي وحنكني، وطلب من أبي أن أكون سميّه، فسماني محمد سعيد وكانت رغبته أن يسميني: محمد فضيل.

الهجرة إلى الشام

أسباب الهجرة:

كان بين الطلاب الذين يدرسون على أبي رحمه الله، شاب صالح اسمه (ملا يوسف) جاء ذات يوم يخبر والدي – والتأثر الشديد إلى درجة البكاء باد على وجهه – أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في الرؤيا، يقول له: اذهب وقل لشيخك أن يأتي ويلحق بي. قال فأخبرتك، ورأيتك تمضي معه إلى حيث لا أعلم. وقد حاولت جاهداً أن ألحق بكما فلم أتمكن، وبقيت وحدي حيث أنا.

لست ادري اكانت هذه الرؤيا – وهي ذات دلالة واضحة – هي التي نبهت أبي إلى فكرة الهجرة، وهيجت في نفسه عوامل الرغبة في أن يترك وطنه ذاك إلى غير رجعة.

مهما يكن فإن أسباباً كثيرة اخرى كرّهت إليه الإقامة في تلك الديار.

من أهمها سلسلة الإساءات المتعمدة الحاقدة التي وجهها أتاتورك إلى الإسلام، وابتغى من ورائها تجفيف ينابيع الإسلام ثم القضاء عليه كلياً في آخر دار للخلافة الإسلامية. ومن المعلوم أنها بدأت بالقضاء على الخلافة الإسلامية، ثم إلغاء الأذان باللغة العربية، ثم استبدال الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية، ثم منع تلاوة القرآن في الأماكن العامة عموماً، وإحلال القرآن المترجم إلى اللغة محله، ثم إجبار الرجال على لبس القبعة الغربية، وإجبار النساء على رفع كل من النقاب والحجاب.

ومن المعلوم أن هذه السلسلة من التخريبات الخطيرة، التي التزم بها أتاتورك في معاهد لوزان تجاه بريطانيا، تم إنجازها خلال أقل من أربع سنوات، فلم يدخل عام 1934 إلا وكانت مدن تركيا وقراها ترزح تحت وطأة هذا العدوان على الإسلام.

كانت قرية جيلكا المزدانة بمسجدها والعدد الكبير من طلاب العلم فيها، لا بدّ أن تنغمس بظلام الكآبة وسواد الحزن، فجأة، بين كل فترة وأخرى. وذلك عندما تغشاها على حين غرة دوريات كثيفة من الجنود والشرطة والأتراك، جاؤوا مدججين بالأسلحة متهيئين للقتال.

يجب حينئذ اختفاء أصوات المؤذنين بالأذان العربي لمشروع، ويجب خلوّ المساجد من المصاحف وسائر الكتب العربية والدينية، ويجب تفرق الطلاب كل إلى داره أو قريته. وعلى الرجال جميعاً أن يذلّوا رؤوسهم للقبعة الغربية، فلا عمامة ولا قلنسوة.

كان هؤلاء الجنود يحتلون ما يشاؤون من البيوت ليقيموا فيها مدة بقائهم في القرية وكانوا يتعقبون المخالفين للتعليمات بأشرس أنواع العقوبات الكيفية.

فكيف تتصور أن يكون مقام والدي في هذا الجو، وسط هذا القتام الذي يبدو السواد إلى جانبه ضياء ساطعاً ؟!..

كان كثيراً ما يعتصم بالمسجد الذي صلي ويدرس فيه، بعد أن يأمر الطلبة فيطووا كل ما فرش على أرضه من بسط وحصر، إذ كان دأب العسكر أن يقتحموا المسجد بأحذيتهم!.. كان ينتحي جانباً من المسجد، ثم يمضي منهمكاً في تلاوة القرآن، أو فصول من دلائل الخيرات، غير ملتفت إلى يمين أو شمال، وغير عابئ بأي حديث أو صوت يسمعه .. وربما عكف في المنزل فلم يخرج منه حتى تنجاب الغاشية وتزول المحنة.

هذا هو السبب الرئيس الأول الذي كرّه إلى أبي – فيما أعتقد – البقاء في تلك البلاد.

على أن هنالك أسباباً أخرى، فقد كانت الجهالة متفشية في القرية، وكانت الأهواء تتحكم برؤوس كثير من رجالها وأولي النفوذ فيها، فكان ذلك يدفعهم إلى خدمة رجال أتاتورك، وإطلاعهم على كل ما يريدون التوصل إليه أو إلى معرفته من شؤون القرية وأحوالها وأنشطة المتدينين فيها.

ومن أهم الأسباب التي حدثني عنها، أن بعض شيوخ الطرق الصوفية، الذين كانوا يعرفون أبي كفقيه شاب، وكانت لهم صولة وشهرة في جزيرة بوطان، كانوا يرسلون إليه من قراهم القريبة والبعيدة، يكلفونه أن يجمع لهم من مريديهم الذين من حوله، ما يحتاجون إليه من حطب للوقود في موسم الشتاء، ثم أن يبعث به إليهم بالوسائل الممكنة. ولم يكن بوسع أبي – وهو في وضعه ذلك – إلا أن يتأدب معهم ويستجيب لهم. قال: فكنت أشتري حاجتهم من الحطب بمالي الخاص ثم أرسله على دواب إليهم، دون أن أعلمهم بشيء !..

لم يخطر ببالي أن أسأل أبي رحمه الله هذا السؤال، ولكن أعتقد أنني تبينت الجواب فيما بعد. فالذي أعرفه أنه رحمه الله كان يُجلّ الشام. وينعتها بالأرض المقدسة. وكان يحفظ أحاديث كثيرة عن فضل الشام، قد يكون فيها أحاديث ضعيفة، ولكن فيها الصحيح أيضاً. ولعل من أصحها ما قد رواه أحمد والحاكم في مستدركه وصحّحه، وأقرّه الذهبي، من حديث أبي الدرداء في فضل دمشق وغوطتها بالذات. ولفظه: (فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى، بأرض يقال لها الغوطة، وفيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ).

وكان يرى ان التردد إلى الحجاز، زائراً ومعتمراً، خير من الاستيطان والمجاورة، في مكة أو المدينة. إذ إن طول المقام من شأنه أن يُنسي ضوابط الأدب والالتزام.

ولقد تجلت لي حقيقة تعلق أبي بالشام، وبدمشق منها بالذات، ومدى حبه لها، فيما بعد، يوم زاره ثلة من علماء هذه البلدة وشبابها، في أوائل الثمانينات، أثناء فتنة الإخوان، فقد قال له أحدهم: بلغنا أنكم تفكرون بالهجرة إلى المدينة المنورة. فأجابه قائلاً: إن تعلقي بالشام كتعلق الصخرة الراسخة في تخوم جبل، لا أتحرك عنها إلا اقتلاعاً.

سيراً إلى الله بغير زاد:

كان لأبي بستان وحديقة صغيرة .. هذا ما أذكره، ولا أدري ما الذي كان يملك من البيوت. المهم أنه رحمه الله نفض يديه من ذلك كله وتركه لإخوته وأقاربه من بعده، وتجهز للرحيل سراً، ولم يكن جهازه إلا ثماني ليرات ذهبية، إن صح حفظي ولم تخنّي الذاكرة.

كان على أبي أن يجتاز بأهله نهر دجلة إلى الحدود التركية السورية، في ظلام الليل خفية، إذ كانت الرقابة التركية تترصد وتراقب المتسللين خارج الحدود، لتحيلهم إلى الشنق مباشرة .. وكانت المغامرة مخيفة وخطيرة، واحتمال النجاح فيها ضئيلاً.

كانت الأسرة مؤلفة من أبويّ، وابنهما الوحيد محمد سعيد، وأخته الكبرى زينب، والصغيرة رقية. وكنت آنذاك قد دخلت الرابعة من عمري حسب ما أكده أبي رحمه الله.

وها أنا أتصور الآن مشهداً بقيت منه في ذاكرتي خطوط تلوح لرسم مهترئ تقادم عليه العهد: نساء من قريباتنا يجلسن على شاطئ دجلة، بينهن امرأة تبكي بعويل يكاد يشق يصدرها

وقد علمت من بعدها أنها خالتي سينم رحمها الله، كانت تودع أختها الوداع الذي لا لقاء بعده، لتفارقها مع زوجها وصغارها إلى مصير لا تدري أهو الموت أم النجاة.

كما أستطيع أن أتصور رجالاً كانوا يقرّبون إلى الشاطئ الذي اجتمعنا جالسين في طرفه، لوحاً خشبياً كبيراً مربّع الأبعاد، يطفو على وجه الماء، وأذكر كيف رأيته مؤلفاً من عمدان متراصّة ضم بعضها إلى بعض، ويسمونه باللغة الكردية (كلك) تنقل عليه البضائع والأشخاص، لمسافات محددة، داخل نهر دجلة ... وهكذا بدأت رحلتنا فوق ذلك الكلك الذي عبر بنا نهر دجلة، وفصلنا عن الأهل والأقربين والوطن، في ساعة ارتسمت مشاهدها في مخيلتي، ولكني لم أتبين آلامها المذيبة إلا فيما بعد.

لم أسمع من أبي شيئاً عن كيفية اختراقنا، بعد ذلك، ساعة الخطر، واجتيازنا الحدود إلى الأراضي السورية بسلام، على الرغم من وعورة الطريق وشدة الخطر .. ولكني أعلم أن الوقاية العظمى التي التجأ إليها بنفسه وأهله وأولاده، هي قراآته وأوراده التي لم يكن يغفل عنها قط.

حط بنا والدي الرحل في أول قرية سورية واجهتنا بعد اجتياز الحدود، هي قرية (عين ديوار) وأقام فيها بضعة أيام، أكرم فيها مختار القرية مجيء أبي واحتفى بمقدمه وتأثر بمغامراته وأكْبَرَ الهدف الذي هاجر من أجله، ولم يكن رجال الشرطة السورية أقل اهتماماً واحتفاء به، على أنه ليس فيهم من يعرف أبي أو يعرف شيئاً عنه.

كانت ولادتنا (الرسمية) جميعاً، في تلك القرية، فقد سجلت أسماؤنا، مواطنين سوريين، مولودين في قرية عين ديوار، وأُعْطِيَ أبي الوثائق التي واصل رحلته بموجبها، على هذا الأساس. وكان قد نزل ضيفاً في الأيام التي قضيناها هناك، على رجل فاضل من أهل العلم، أصبح فيما بعد مفتياً لمدينة القامشلي، اسمه: ملا أحمد عين ديواري.

الحياة الجديدة في دمشق

الارتباط بمسجد الرفاعي:

كان في اعلى منطقة ساحة شمدين، مما يلي الغرب، وعلى بعد مئتي متر تقريباً، حيّ شعبي فقير يسمونه: الحارة الجديدة، وكان معظم أهل هذا الحي يعانون، إلى جانب الفقر، من سوء الخلق وفشو الجهل والانحراف .. وكانت في قلب تلك الحارة ساحة صخرية اتخذها الناس مجمعاً للقمامة والأقذار.

وذات يوم جال في خاطر اثنين من أهل ذلك الحي، وكانا يعملان في البناء، أن لو أمكن تنظيف تلك الساحة من القمامة التي غدت مصدر وباء وأذى لذلك المحيط كله. وارتأى احدهما أن يقام فوق تلك البقعة الصخرية مسجد، نظراً إلى أن ذلك أضمن سبيل لتحصين المكان وحمايته مستقبلاً من القمامة والأقذار.

ولاقت الفكرة قبولاً، وراح أصحاب الفكرة يبحثون عمن يموّل المشروع .. وبلغ الاقتراح سمع رجل كان يعدّ من أغنياء حيّ الأكراد، يدعى (أبو سليمان قره جولي) واسمه: محيي الدين. وكان على تقوى دين. وذهب فرأى الموقع، وتعرف على المحيط من حوله، ورأى حاجته الماسة إلى مسجد للصلاة، فتبنى المشروع وقدّم النفقة .. وتبرّع كل من البنّاءَيْن اللذين قدّما الفكرة بجهودهما الشخصية في إقامة البناء.

وشاء الله عز وجل أن يتم بناء ذلك المسجد أو المصلى في مدة وجيزة على ما أذكر ... كان الحرم صغيراً لا يتسع لأكثر من خمسين مصلياً، وكانت له من ورائه فسحة سماوية صغيرة أقيمت فيها غرفة للمؤذن أو الإمام.

وبحث المهتمون بأمر ذلك المسجد وبنائه عن إمام يؤم المصلين فيه .. وسرعان ما اقترح لهم أبو سليمان، ذلك المتبرعُ بتكاليف البناء شيخاً جليلاً عالماً يدعى ملا رمضان !..

كان محيي الدين أبو سليمان يعرف أبي، وكان معجباً بعلمه وزهده وترفعه عن الدنيا، فجاء يعرض هذه المهمة عليه. وأبدى رغبته الشديدة في أن يوافق، ولعله أوضح له حال ذلك الحي ومدى حاجته إلى مسجد يجتمع الناس فيه للصلاة، وإلى عالم ينصحهم ويرشدهم إلى الحق.

وفكر أبي في هذا العرض مدة، استخار اللهَ خلالها، واستشار بعض أصدقائه من العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ محمد جزو الذي كان من أخص أصدقاء والدي وأحبهم إليه.

كانت النتيجة أن شرح الله صدره للقيام بهذه الوظيفة .. فتحول عندئذ من الدار التي كان يقيم فيها في زقاق عرفات، إلى دار أخرى قريبة جداً من المسجد الجديد، موقوفة لصالحه.

وهكذا انتقلنا إلى تلك المنطقة التي تسمى الحارة الجديدة .. والتي كانت آنذاك منطقة موحشة متطرفة، تسكنها فئة من الجهال الذين يمارسون أعمال الفتوة (الزعرنة) ويتخذون سفوحهم الصاعدة إلى جبل قاسيون، مثابة لشرورهم وخصوماتهم بين الحين والآخر !.. فهل كان بوسع أبي أن يروض أولئك الناس؟

باشر أبي بوظائف المسجد إماماً، وفي كثير من الأحيان مؤذناً أيضاً .. ولم يكن آنذاك أكثر من مُصلًّى تؤدى فيه الصلوات الخمس. وأبى ذلك الثري الذي بنى المسجد من ماله، إلا أن يجري جراية، لإمام المسجد والقائم بأمره، تمثلت آنذاك بحمل من الحنطة يرسلها إليه كل عام .. كان ذلك عام 1941 يوم كان الناس لا يزالون يدخرون الحنطة ويعتمدون عليها في خَبْزِهم وجّل أقواتهم.

كان المسجد لا يحفل بأكثر من عشرة من المصلين في أوقات العصر والمغرب والعشاء .. وفي صلاة الصبح نحو ذلك. اما في وقت الظهر فلم يكن يأتي أحد على الأغلب، وقد كانت عادة والدي في هذه الحال أن يؤذن ليعلم أهل الحي بدخول الوقت، ثم يتجه مسرعاً إلى مسجد ركن الدين ليدرك الجماعة هناك.

لم يكد يباشر أبي بالصلاة في المسجد حتى بدأ فنظم دروساً فيه بعد صلاة الصبح، ودرساً بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة. وكنت اجلس في معظم دروسه، وأنظر في الحاضرين، فلا أجد إلا عدداً قليلاً من المصلّين لا يبلغون أصابع اليدين، قد تناثروا مستندين إلى جدران المسجد هنا وهناك، وقد غلب على أكثرهم النوم أو النعاس.

الجديد في هذه الوظيفة التي ارتبط بها أنها عاقته عن السفر إلى الجزيرة لأعمال البيع والشراء، كما كان يفعل من قبل. فاتجه بدلاً عن ذلك إلى البحث عن كتيبات صغيرة رائجة ومطلوبة عند الأكراد مما يخص لغتهم أو تاريخهم أو آداباً إسلامية عامة، ومما لم يكن قد طبع من قبل، كتلك

الكتيبات التي كانوا يتداولونها محفوظة فيما بينهم، فتولى طباعتها على نفقته، ثم أخذ يرسلها للطالبين عن طريق البريد أو بواسطة أشخاص. ومن الكتب التي طبعها ونشرها على هذا الغرار فلقيت رواجاً بين الأكراد، كتاب صغير، اسمه (نهج الأنام) مؤلف باللغة الكردية، يتضمن العقائد الإسلامية التي يجب أن يعلمها كل مسلم، كما يتضمن بعض الآداب والقواعد الأخلاقية .. وكتاب آخر اسمه (نوبهار) أي الربيع الجديد، وهو عبارة عن قاموس شعري صغير من العربي إلى الكردي، ألّفه الشاعر والأديب المشهور أحمد الخاني مؤلف قصة (ممزين) كما طبع مولداً باللغة الكردية، أعتقد أنه لم يكن قد طبع من قبل، وكانت هذه الكتب تلقى رواجاً عند الأكراد المقيمين في سورية والمقيمين وراءهم داخل حدود تركية. فكان له رحمه الله من هذا العمل ما أغناه عن متابعة السفر، وأعانه على القيام بأعباء وظيفته الجديدة على خير وجه.

الانحراف . . وسبيل الإصلاح:

لم يكن العبء الأكبر متمثلاً في القيام بوظائف المسجد .. ولكنه طان آتياًكم مصدر آخر، هو جهل، بل سفاهة كثير من أهل ذلك الحي .. لم يكن على أبي أن يصبر على ذلك الواقع فقط، بل كان يحمل نفسه مسؤولية هدايتهم وإصلاحهم أيضاً.

ولو أن العالم أو الداعي إلى الله تصور أن عونه في هذا السبيل، إنما يتمثل في لسانه وعلمه وسعة خلقه وطول تحمّله .. لكان عليه في كثير من الأحيان أن يقع في اليأس.

لقد استعان أبي بعلمه الغزير، ولسانه العربي الذي أصبح طليقاً، كما استعان بطول الصبر والتحمل، بل استعان بعد ذلك كله بكثير ممن بيدهم الحكم والسطوة. فلم يأت ذلك بأي نتيجة على طريق السعي إلى هداية بعض أولئك الجهال بل السفهاء كما قلت.

وإنما الذي أنجده بعد ذلك كله، كثرة الالتجاء إلى الله، وطول التضرع بين يديه، في ظلمات الليالي وساعات السحر .. وليت الدعاة إلى الله يدركون قيمة هذا السلاح العجيب في إصلاح الفساد وتقويم الإعوجاج.

أولاده . . ومسلكه في تربيتهم

مسلكه في التربية:

كان أبي رحمه الله يعتقد أن المنزل هو المصدر الأول للتربية، وأن الأبوين هما أول مسؤول عن تربية الأولاد .. والقاسم المشترك بين الذكور والإناث في التربية التي يأخذهم بها، ضرورة تلقين الطفل لفظ الجلالة عند أول محاولة للنطق. ثم تلقينه جملة الشهادة عندما تنشأ قدرته على النطق بالجملة الكاملة .. فإذا درج من المهد وتهيأ عقله لإدراك الأمور وحفظها، وجب إعلامه بأولى الحقائق الكونية وأخطرها. ينبغي إعلامه بأن لهذا الكون إلهاً يدبر ويدير أمره، وأن كل إنسان عبد ومملوك لله، كما ينبغي إعلامه باسم آخر الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، واسم أمه وأبيه ومكان ولادته، ومكان هجرته، وبخلاصة عن سيرته. ثم يلقن القرآن من أوله إلى آخره.

بهذه المبادئ الهامة كان يأخذ أبي أولاده منذ نعومة أظفارهم.

ثم إنه كان يرى أن تربية البنت وتعليمها في المنزل أكثر ضمانة لاستقامتها، إن تيسر وأمكن ذلك، وهذا ما تم فعلاً بالنسبة لكل من أختيّ: زينب وخديجة.

وكان يستحسن — إذا أخذت البنت حاجتها من الثقافة والمعارف الإسلامية — أن تتجه إلى إتقان أي من الفنون النسوية. ولم يكن له موقف مخالف لمبدأ تعليم البنات، ولكنه كان يشترط لذلك أن يكون طريقهن إلى التعليم نظيفاً غير موبوء.

أما أنا، وقد كنت كما ذكرت الابن الوحيد، فقد عهد بي — وأنا في السادسة من عمري — إلى امرأة فاضلة، كانت تعلم الأطفال قراءة القرآن، وأوصاها بي .. فكانت تعنى وتهتم بي في تلقيني القرآن وتلقيه منها على الوجه السليم. وقد علمت فيما بعد أنني ختمت تلاوة القرآن عندها خلال ستة أشهر، وأذكر أن والدي احتفى بهذه المناسبة احتفاءً كبيراً، وأعلن عن ابتهاج عظيم. وأعطاها على إنجازها هذا أربع ليرات ذهبية. وما أعتقد انه استبقى لنفسه مثلها.

ثم إنه عهد بي إلى مدرسة ابتدائية أهلية خاصة، في زقاق القرماني، قرب سوق ساروجة، كان يعرف مديرها ويثق به. ولم تكن تلك المدرسة تعنى إلا بتعليم الدين ومبادئ اللغة العربية والرياضيات وكنت اجتاز إليها طريقاً ترابياً طويلاً بين البساتين يسمى: عين الكرش، سيراً على

الأقدام. فأذكر أنني كنت أعاني من ذلك السير الطويل بين تلك الأتربة جهداً كبيراً. في الذهاب والإياب.

كان أبي بعد ذلك هو معلمي الأوحد .. علمني أولاً مبادئ العقيدة الإسلامية، ثم علمني موجزاً من سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، من خلال رسالة صغيرة اسمها: ذخيرة اللبيب في سيرة الحبيب. ثم أخذ يعلمني مبادئ علوم الآلة من نحو وصرف. وسلّكني في طريق حفظ ألفية ابن مالك في النحو. فكان يفسر لي كل يوم خمسة أو ستة أبيات منها، وكان علي أن أتقنها بعد ذلك حفظاً في بياض ذلك النهار. فأذكر أنني حفظت الألفية كلها خلال أقل من عام. ولم أكن قد ناهزت البلوغ بعد.

كيف كان يأخذ الأهلَ والأولادَ بتربية من ذكر الله:

كان الجانب المتميز في تربية والدي لأهله وأولاده، أنه يذكرهم بالله في كل مناسبة، ويجعل من كل حال يصيرون إليها أو يتقلبون فيها مناسبة لتذكيرهم بسطوة الله أو برحمة الله أو بكرمه وإنعامه.

كان إذا وضع الطعام واجتمعنا معه على مائدته، أمرنا جميعاً ان نجلس جلسة أدب، حتى لكأننا ماثلون من هذه المائدة امام الله .. وكم كان يطيب له أن يقول لنا في نشوة معدداً ألوان الطعام الذي أمامنا: هذا لون، وهذا لون ثان، وهذا ثالث، وهذا رابع .. ألا تسألون ؟.. ماذا صنعنا لله عز وجل، ومن نحن، وما قيمتنا حتى يكرمنا الله بهذا كله ؟ ثم يردد قول الله عز وجل: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} التكاثر 8.

كان الصغار والكبار يتأثرون بهذا التذكير .. وكم شعرت، بل شعرنا جميعاً، ونحن نأكل، أننا في عبادة من أجلّ العبادات.

ومنذ عشرات السنوات، كان رحمه اله، يجمعنا على ورد من ذكر الله صباح كل اثنين وخميس بعد صلاة الفجر، فكان يجتمع إليه في مجلسه بعد صلاة الصبح الصغار والكبار جميعاً. فيبدأ يبدؤون معه بذكر (لا إله إلا الله) مئة مرَّة، ثم ينتقل لهم إلى ذكر لفظ الجلالة (الله) مئة مرة، ثم يقرأ ويقرؤون معه حزب الإمام النووي، وهو مجموعة مأثورات من الأدعية والثناء على الله

والالتجاء إليه. ولا بدّ أن يوزع عليهم بعد ذلك ولو شيئاً رمزياً من الدراهم اليسيرة أو الحلوى .. وكان يوصينا جميعاً أن لا ندع هذا الورد الجماعي في هذا الميقات بهذا الشكل. وإنني لأحمد الله عز وجل أن وفقنا جميعاً: أولاده وأحفاده، لأن نكون إلى هذا اليوم ملتزمين بوصيته مثابرين على النهج ذاته وفي المواقيت ذاتها.

وكم يطيب لي ويسرني أن أدعو إلى الالتزام بهذه الوظيفة اليسيرة في جهدها، العظيمة في آثارها، كل من عرف والدي فأحبه، وكل من سمع به أو تعرف على سيرته من خلال هذا الكتاب، فلسوف يجد بركة ذلك في نفسه وأهله وأولاده، ولسوف يجد آثار ذلك سعادةً وأنساً في بيته.

ولعل من أداء الأمانة – وقد اقتضت المناسبة – أن أروي للقارئ هذا الخبر الذي لن أزيد فيه على الواقع ولن أنقص منه شيئاً.

وكان أبي رحمه الله يمضي أيام نقاهة قبل وفاته بعام ونصف تقريباً، في دار لأحد الأصدقاء في بلودان. وجلسنا معه بعد صلاة الفجر من أحد أيام الاثنين أو الخميس، نتلو هذا الورد الذي وصفته قبل قليل. كانت الغرفة التي نحن فيها مطلة على شرفة واسعة لدار تحتها. وكان بعض الفتيات يجبن على ما يبدو، تلك الساعة، على أرض تلك الشرفة .. فلما انتهينا من وردنا ذاك وطلع النهار وامتدّ الضياء، طرق الباب علينا طارق، كانت بنات الجيران هنّ اللائي جئن يسألْننا عن شيء رأينه وأدهشهن في ذلك الصباح.

رأين طيوراً كثيرة في غبش الظلام بعد صلاة الصبح، سوداً أو بيضاً، لم أعد أذكر، تخرج أرسالاً متتابعات من الغرفة المطلة على شرفتهم والتي كنا نذكر الله فيها في ذلك الوقت. وكان السؤال الذي يثير عجبهن: ألم تروا تلك الطيور الكثيرة وهي تخرج من عندكم؟

قلنا: إننا لم نجد شيئاً، ولكنا كنا في تلك الساعة مجتمعين جميعاً نذكر الله عز وجل.

عباداته، زهده، وورعه

كان أبي متعبداً من خلال الصلوات المتنوعة وإكثاره منها، وكان متعبداً بتلاوة القرآن والمداومة عليها، ومن خلال مناسك العمرة والحج وما تميز به من أعمال وأحوال فيهما .. وكان متعبداً من خلال خلواته في غرفته الصغيرة مفكراً ومتأملاً في العمر الذي قطعه، والهجرة التي وفقه الله لها والنعم التي أكرمه بها. وكان متعبداً من خلال أوراده وأذكاره الكثيرة التي كان ملازماً لها، وكان متعبداً من خلال زياراته للصالحين سواء منهم الأحياء والأموات. وكان متعبداً من خلال دروسه المتميزة للناس الذين كانوا يغشون مجالسه.

وها أنا أفصّل القول في كل من هذه الجوانب والأحوال، بالقدر الذي أتذكر وأتأكد.

صلواته وتهجده:

كان مكثراً من النوافل، سواء منها المؤكدة وغيرها، فلم يكن يدع وقتاً يمرّ وللشارع فيه صلاة مستحبة، إلا وقام فصلاها، مؤثراً دائماً النهاية العظمى في عدد الركعات على النهاية الدنيا. ما لم يكن معتلاً بعلّة تقعده عن أداء هذا الالتزام. وسواء ورد استحبابها في أحاديث صحيحة أو ضعيفة، فقد كان يعزز الضعيف منها ويدعمه بقول رسول الله في الحديث الصحيح: (الصلاة خير مشروع) ..

وكان حرصه على التهجُّد لا يقل عن حرصه على الفرائض .. ولم يكن يقنعه من ميقاتها قبل الفجر دقائق معدودات بل كان يصرّ على أن يقوم قبل الفجر بساعتين أو ثلاث ساعات .. كان يصلي أولاً ركعتين خفيفتين، ثم يطيل الركعة من صلواته التالية ما شاء الله أن يطيل .. فإذا دخل السحر جلس على سجادته، وأسلم نفسه لمشاعر الحزن، من تقصيره والخوف مما هو مقبل عليه، وأخذ يناجي الله آناً بالعربية وأخرى بالكردية مع نشيج وبكاء متواصل.

ولكم استيقظت على صوت بكائه وحديث نجواه، يوم كنا جميعاً نسكن في غرفة واحدة، في السنوات الأولى من وصولنا دمشق .. ولكم سمعته في أوقات السحر وما قبلها، يتحدث عن الموت وما بعد الموت وما هو مقبل عليه .. ثم يردد باكياً هذه الأبيات التي رسخت في ذهني منذ تلك الأيام:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المِعَدُّ لكل ما يُتَوقـــــع
يا من خزائن جوده في قول: كن أُمنن فإن الخير عندك أجمـــع
ما لي سوى فقري إليك وسـيلةً فبالافتقار إليك فقري أدفـــع
ما لي ســوى قرعي لبابك حيلةً فلئن رُدِدْتُ فأي باب أقـــرع؟
حاشــا لجودك أن يقنِّط عاصياً الفضل أجزل والمواهب أوسع

ثم إن صلاته لم تكن كصلاة أحدنا، تلاوةً باللسان، وحركات مألوفة بالجذع والأعضاء، مع قلب منصرف إلى الدنيا وشؤونها، محجوب عن كل ما يتلوه ويردده اللسان، بل كان إذا دخل في الصلاة تحول إلى كتلة من التذلل والصَّغار بين يدي الله، وانساق في ذلك جسمه ومظهره وراء أحاسيسه ومشاعره المنصرفة إلى مناجاة الله عز وجل .. ولكم انتابته أحوال وهو في الصلاة، خالياً في غرفته، أو علناً في محراب مسجده .. وربما انتابته حال في مجلس له، فقطع المجلس وقام إلى الصلاة.

حدثني الأستاذ الشيخ خير العلبي، وهو من الرعيل الأول من طلاب وخريجي معهد التوجيه الإسلامي، أنه كان جالساً في زيارة لوالدي ذات صباح. فطلب منه والدي أن يسمعه بعض الأبيات، وللشيخ خير العلبي صوت شجي وروحانية نامية، فأخذ ينشد له أبياتاً، لم يتح لي أن أعرفها أو أحفظها، فأخذ يصغي إليها بخشوع وأدب، كما لو كان يصغي إلى قرآن، ثم أخذته حال، وصاح صيحة أفزعت الشيخ المنشد .. ثم إنه ترك الإنشاد والمنشد، وقام يصلي !..

كان رحمه الله يأخذ على كثير من طلاب العلم، والإسلاميين الذين يرون أنهم يشتغلون بالدعوة، انهم لا يقبلون من الصلاة إلا على وظائف عضوية يؤدونها، وألفاظ محفوظة يرددونها .. ثم إن أحدهم يقف حتى في صلاته التي هو فيها مع الله، وقفة المعتز بشأنه المتباهي بنفسه، يميل رأسه إلى الأعلى، ويمدّ ساقاً ويعدل أخرى .. وكم كان يحذرني بشدّة من أن أركن إلى عادة هؤلاء الناس فأبتلى بمثل هذا الصلف. في وقت لن يكون الإنسان أكثر مهانة وذلاً منه في هذا الوقت.

تلاوته وحفظه للقرآن:

اتجه أبي منذ شبابه إلى حفظ القرآن، ولكنه لم يتم حفظه إلا بعد استقراره في دمشق، بسنوات لم أعد أذكر كم هي.

والمهم أنه كان كثير التلاوة للقرآن، أما قبل استكمال حفظه له فعلى طريق إكمال حفظه، وأما بعد أن أتم حفظه، فعلى سبيل المحافظة على المحفوظ، واستئناساً بكلام الله وتدبراً لمعانيه ومراميه.

كان يختم القرآن في كل أسبوع مرة، وكان يلزم نفسه بقراءة خمسة أجزاء في كل يوم، يبدأ الختمة يوم السبت، ويختمها الخميس ليلاً أي ليلة الجمعة. ويجعل من الجمعة يوم راحة للقيام بوظائف أخرى.

وقد بقي محافظاً على هذا الالتزام طبق هذا النظام، إلى ما قبل وفاته بأشهر، مع استثناء أيام مرضه الذي انتابه في السنوات الأخيرة من حياته، وهما مرضان. أبلّ من احدهما وعوفي منه وعاد إلى أعماله ودروسه لعدة سنوات، وامتدّ به الثاني ما بين شدة ولين إلى أن وافاه الأجل.

وكان يتلو القرآن حدراً، وكثيراً ما كان يطلب مني أو من أحد أولادي أن يتابع ويضبط له حفظه في القرآن. وكانت تستوقفه الآية أو الجملة من الآية بين الحين والآخر فيتأمل في دلالتها ومغزاها متأثراً متخشعاً، أو يتساءل عن العمق الكامن في دلالتها، مراجعاً ومنقباً عن ذلك في بطون كتب التفاسير.

وإذا نالت الآية منه منالاً، بقي أياماً بل أسابيع عدة يتدبّرها ويعيش معها ويتحدث عنها وعن تأثره بها للناس في دروسه ومناسبات وعظه.

من ذلك قول الله عز وجل: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} هود 123، فقد فعلت هذه الآية في نفسه أفاعيل كثيرة، لا سيما قوله عز وجل: (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ). ولكم رددها في المناسبات وهو يتحدث عما في داخلها من دلالات.

ومن ذلك قول الله عز وجل: (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وهو جزء من الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف. كانت تمتلك عليه هذه الجملة (ألا له الخلق والأمر) عقله ولبه، فلم تكن تبارح فكره في تقلباته وأكثر أحواله، وكم كان ينتشي بترددها في المجالس والتنبيه إلى غزير معانيها وعظيم مراميها.

أثبت هنا ما وراء ذلك من الالتزامات التي كان مثابراً عليها ي كل صباح ومساء، كما ورد في جوابه عن رسالة الرجل الماليزي.

- قراءة سورة ياسين في كل صباح ومساء.
- قراءة سورة السجدة والواقعة والملك في كل مساء.
- مئة مرة: "سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله" قبل صلاة الفجر.
- عشر مرات: "لا إله إلا الله" ومثلها "سبحان الله" ومثلها "الحمد لله" ومثلها "أستغفر الله" ما بين أذان الفجر وصلاته.
- مئة مرة: "أستغفر الله الحي القيوم وأسأله التوبة" في كل صباح ومساء.
- مئة مرة سورة الإخلاص، في كل صباح ومساء.
- مئة مرة "لا إله إلا الله"، في كل صباح ومساء.
- مئة مرة "اللهم صل على النبي الأمي محمد وعلى آله وصحبه" في كل صباح ومساء.
- مئة مرة "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" كل يوم.
- مئة مرة "لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير" كل صباح ومساء.
- هذا بالإضافة إلى مأثورات كان يتلوها في كل صباح، يطول بنا بيانها ونقلها. مثل ورد الإمام النووي، ومثل هذه الكلمات: "سبحان الله العلي الديَّان، سبحان الله شديد الأركان، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن، سبحان الله المسبح في كل مكان". "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم، إنك أنت علام الغيوب" ثلاث مرات.

ثم يقول: بسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله. بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، بسم الله ما شاء الله، ما كان من نعمة فمن الله.

كما كان يحرص على تلاوة القصيدة المضرية للبوصيري صباح كل يوم، وهي التي تبدأ بـ:

يا رب صل على المختار من مضر والأنبيا وجميع الرسل ما ذكروا

وكان يبدأ بأوراد الصباح مع الفجر، أما أوراد المساء فيبدأ بها بعد صلاة العصر، فإذا شغل بعد العصر بدرس أخوه، حاول جاهداً أن يقضي ما فاته بعد ذلك.

وبالجملة، فلم يكن يُرَىَ في غرفته الصغيرة التي كان يلازمها إلا مشتغلاً بقراءة قرآن، أو منهمكاً بالتحقيق في مسألة علمية، أو حاملاً سبحة لقراءة ورد.

وكان يحسن استقبال زائريه الذين يأتون ابتغاء فوائد دينية أو حاجات دنيوية مما يستطيع تقديم يد العون فيها. فإذا رأى أن مهمته انتهت، وأنه أنجز ما قد طلب منه، عاد إلى سبحته يواصل ذكره وورده.

زياراته للصالحين أحياء وأمواتاً:

كان أبي رحمه الله يرى أنه كما تتنزل الرحمات عند ذكر الصالحين، فإنها تتنزل أيضاً في أماكن وجودهم، سواء كانوا في الأحياء والأموات.

ولذا فقد كان يهتم بزيارة الصالحين، ويتحلى بالأدب والتواضع الجم في مجالسهم، ويرى أن ذلك من اهم الطاعات وسبل القرب إلى الله .. وكم كان يستشهد على هذا بالحديث القدسي الذي يقول فيه رب العزة جل جلاله: (أما إنك لو عدته لوجدتني عنده).

وربما كان الصالحون الذين يزورهم ويتوخى رحمة الله في القرب منهم، ممن لا يؤبه بهم في المجتمع، وقد لا يعدّون من طبقة العلماء البارزين والمتميزين، بل ربما كانوا من الخاملين المغمورين.

وقد كنت أصحبه في بعض تلك الزيارات .. فكنت أعجب لشدة تأدبه وبالغ تواضعه معهم .. لم يكن يبرز شيئاً من علمه فيما بينهم، وهو الفقيه الذي اشتهر بسعة اطلاعه ودقة معلوماته الفقهية، بل كان يظهر في مظهر التلميذ الساكت والمستفيد، إلا إن سئل أو ألجئ إلى الكلام لموجب شرعي.

كان يتجه بين الحين والآخر إلى حمص، يقصد زيارة علمائها، وبعض الصالحين المغمورين فيها. وكان يلمس من علمائها الصلاح وصدق الحب والتآلف فيما بينهم.

اتجه قاصداً إلى جبلة لزيارة ابراهيم بن أدهم رحمه الله، وبعض الصالحين من الأحياء فيها.

ذهب إلى الرقة، متجشماً بعض الصعوبات، لزيارة أويس القرني فيها. وكان ابني محمد توفيق معه في هذه الزيارة، وكان ذلك في شهر شباط من عام 1972. فحدثني محمد توفيق أنه لما خرج من زيارة سيدنا أويس القرني، وقف في ساحة قريبة هناك يحدث بعض الناس عن أويس القرني ويذكر لهم بعضاً من ترجمته ومناقبه. ويبدو أن كلاً من حديثه ومظهره لفت أنظار الكثير من أهل الرقة، فأحدقوا به يحدثونه عن المحل والجفاف اللذين أصيبوا بهما في ذلك العام، وراحوا يتشبثون به ويلحون عليه أن يدعو الله لهم بالفرج والإغاثة، وكأنما رأوا فيه منقذاً أرسله الله لهم.

وقد كانت الرقة تعاني في ذلك العام من جفاف رهيب، وقال شهود عيان: لم يكن بوسع الناظر أن يرى عرقاً أخضر عن يمين الطريق أو شماله، وكان المنظر الرهيب في محل ذلك مظهر المواشي الكثيرة ساقطة موتى هنا وهناك ..

قال لي توفيق: فأخذت جدي شفقة شديدة عليهم .. واستجاب لرجائهم قائلاً: فابحثوا لنا عن مكان مناسب نجتمع فيه لندعوا الله عز وجل، فأشاروا له إلى ساحة واسعة من مسجد قديم هناك فاتجهوا جميعاً إلى هناك، وسرعان ما تسامع سائر أهل الرقة بالأمر، فجاؤوا مسرعين من كل صوب. وأخذ أبي يدعو بتذلل وضراعة بالغتين، كما هو شأنه عند الدعاء، واجتاح القوم بكاء وظهر فيهم صدق الالتجاء إلى الله.

يقول توفيق: ونزل جدي ضيفاً في تلك الليلة على بعض أهالي الرقة وكنت معه .. وفي الليل بدأت الأمطار تهطل .. ثم أخذت تشتد .. ثم ازدادت شدة، وبدأت قطرات المطر تتساقط علينا من سقف الغرفة التي كنا فيها، فأسرع صاحب البيت ينقلنا إلى غرفة أخرى. وبعد قليل أخذ يترشح سقف الغرفة الثانية، ثم راحت المياه تتساقط علينا منها هي الأخرى .. وغمرت أهل المدينة فرحة عظيمة بعد طول حزن واكتئاب.

وقبيل هذا التاريخ، زار القدس ومسجد الخليل، وحاول ان يذهب من هناك حاجاً إلى بيت الله الحرام، فلم يتح له ذلك. فاتجه من هناك إلى بغداد، وليس له في ذلك من قصد إلا زيارة

سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسيدي معروف الكرخي، وسيدي جنيد البغدادي، والإمام أبي حنيفة النعمان، وبعض من يمكن أن يراهم من الصالحين الأحياء.

وفي دمشق، كان المرحوم الشيخ صلاح كيوان واحداً من الصالحين الكثيرين الذين كان أبي يتقرب إلى الله بزيارتهم والتماس الخير والبركة في مجالسهم.

ولقد كان الإمام النووي (محيي الدين يحيى بن شرف النواوي) من أبرز من يجلّهم ويحبّهم والدي رحمه الله، وقد أجمع من ترجموا له على رسوخ قدمه في علوم الفقه والحديث واللغة والرجال، وسمّو مكانته في الصلاح والولاية والتقوى.

وقد كان يحرص على زيارة قبره في قرية نوى جنوب مدينة دمشق، كلما أتيح له ذلك. ولقد صحبته في أولى زياراته له، ولم أكن قد تجاوزت العاشرة من العمر .. وكانت تظلل قبره آنذاك شجرة عجيبة تفجرت من داخله، لا أذكر أني رأيت أكثر اتساعاً ولا أكبر ضخامة منها ... فلما أتيح لنا أن نعود فنزور القبر بعد سنوات، نظرت وإذا بتلك الشجرة قد انكمشت وتقلصت وعادت كتلة حطب يابس قائم وسط القبر.

وكان عمل أبي في زيارة هؤلاء الموتى، يتلخص في السلام عليهم بأدب تام كما لو كانوا في الحياة، وربما تلى بعد ذلك شيئاً من القرآن، ثم أنه يدعو ما شاء الله له أن يدعو لنفسه وللمسلمين.

ورعه وزهده:

كان رحمه الله شديد الورع في علاقاته ومعاملاته، كثير الرقابة على لسانه وعلى ما يجري في مجالسه. فلم يكن يحرك لسانه بغيبة أحد، ولم يكن يأذن لأيٍّ من مُجالسيه أن يغتاب أحداً، سواء كانوا ضيوفاً عنده، أو كان هو ضفاً في دار أحدهم، وأياً كانت مرتبة الذي تورط فاغتاب.

ولم يكن يسكت على أي منكر يراه مهما دق أو صغر، ولكنه كان يستعمل في إنكاره أقصى درجات الحكمة واللطف. فإذا رأى من يقابل حكمته ولطفه بالمخاتلة والخداع، أخذ منه الغضب ولم يعد يبالي أحد أو بشيء.

ولأتحدث عن صور من ورعه في شدة مراقبته للمال الذي يأتيه أو الطعام الذي يدعى إليه ولعله أصعب أنواع الورع، ولعل اكثر الناس قد ابتلي اليوم بنقيضه.

كان يحرص على أن لا يتسرب إلى جيبه أي مال مشبوه، فضلاً عن المال المحرم. والمال المشبوه فيما يعرفه به العلماء هو المال الذي اختلط فيه الحلال مع الحرام، وكان الحلال من الكثرة بحيث لا يمكن تمييز الحرام منه. وأساس الحكم الشرعي أنه يجوز للولد أن يتناول قدر الحاجة من مال أبيه المشبوه، وكذلك الوالد بالنسبة للولد، والزوجة بالنسبة للزوج. ولكن الورع هو أن يبتعد الإنسان على المال المشبوه في سائر الأحوال. وقد كان أبي رحمه الله حريصاً على أن يفعل ذلك جهد استطاعته.

فهو لم يأكل من مرتبي، وكان يوصيني دائماً بان لا أنفق شيئاً منه على أي قوت أو طعام يؤكل، ويأمرني بأن أنفق منه على ما عدا ذلك من الاحتياجات الأخرى. ولا شك أنه لم يكن يفتي بحرمة الأكل منه، ولكنه كان يلزم نفسه بما لم يكن يلزم به الآخرين حيطة وتورعاً. وكان يقول: إنّ مدخراته التي كان قد اكتسبها من كدّ يديه تكفيه لمعيشته الشخصية، ومن ثم فربما كانت إضافة المال المشبوه إليها من الزيادة التي لا حاجة به إليها.

وكان إذا تلقى دعوة من احد إلى طعام، أرسل يحقق في مصدر ماله وكيفية كسبه، فإن علم أن في ماله شائبة حرمة، أو أنه من المال المشبوه كما اوضحنا، افتعل أياً من الأعذار الممكنة ولم يستجب للدعوة.

ذهب مع جمع من العلماء في أوائل الستينات إلى حلب، في نطاق القيام بحملة انتخابية لانتخاب مفت للجمهورية العربية السورية والاتفاق مع علماء حلب على كلمةٍ سواءٍ في هذا الأمر.

ولما رجع إلى دمشق، أرسلَتْ إليه جهةٌ مّا خمسين ليرة قيمة تذكرة الطائرة التي أقلته من دمشق إلى حلب. فرفضها بشدة قائلاً: إنني لم أخدم في رحلتي تلك وعملي الذي قمت به أي شخص لمصلحة ذاتية تعود إليه، حتى أستحق أن أتناول منه هذا الأجر، وإنما أديت من خلال عملي وسفري ذاك واجباً شرعياً أناطه الله بعنقي. فالمغنم في هذا لي، والمغرم عليّ.

والحق أقول: ما رأيت في هذا العصر مسلماً أكثر دقة في اللقمة التي تُقدَّم إليه ليأكلها، وفي القرش الذي يدخل جيبه من أين جاء، وأكثر احتياطاً وورعاً في ذلك لدينه، من والدي رحمه الله.

أما زهده، فيخيل إليّ أنه لولا ذيول من الزوجة والأولاد كان يتحمل مسؤولية رعايتهم والنظر في معايشهم، لآثر أن ينفض يده من الدنيا وأن يعيش حياة أزهد الزاهدين من أصحاب رسول الله.

كان إذا جلس إلى مائدة الطعام في داره، ورأى ألواناً متعددة وضعت أمامه، انتابه مزيج من مشاعر العتب على أهل الدار، والخوف من سخط الله وعقابه، والألم من عجز الجميع عن الشكر اللائق لله عز وجل .. وكم كان يخوف ويعاتب بقسوة آناً ولين آناً آخر، من الركون إلى المزيد من متع الدنا ولذائذها .. وكان كما قلت من قبل يعدد الأصناف المجتمعة على المائدة فيقول: هذا خبز، وهذا أرز، وهذا لحم، وهذه خضرة، ويمضي في تعداد الأصناف كلها، ثم يقول: أين نحن من النهوض بشكرها ؟ أليس هذا هو النعيم الذي سيسألنا الله عز وجل عنه ؟!

موقفه من التصوف والبدع

التصوف النقي سلّم الوصول إلى ثمرات الإيمان:

كان أبي رحمه الله يجزم بأن التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه.

وكان يؤكد أن المسلم إذا لم يكن قد تشرب حقيقة التصوف، فقد حبس نفسه في معاني الإسلام، ولم يرق صعداً إلى حقيقة الإيمان.

وكان يلحّ على أن التصوف ليس كلمات تورث أو تنقل ولا معارف تحفظ، ولكنه حال يتلبس بكيان المسلم يرقى به إلى مستوى شهود الله عز وجل. وإذا لم يرتفع المسلم إلى مستوى هذا الشهود، فهيهات أن تكون نصوص الأحكام وحدها، بكل ما يحف بها من مؤيدات الجزاء، حافزاً كافياً للانضباط الحقيقي بمدلولاتها وأوامرها.

إن الالتزام الحقيقي بأوامر الله عز وجل يأتي نتيجة ازدهار ثمرات الإيمان بالله في القلب وليس لهذا الإيمان من ثمرات إلا حب الله وتعظيمه والخوف منه والرضا عنه والثقة به والاتكال عليه والفناء في ذلك كله عن الأغيار. ومن ازدهار مجموع هذه الثمرات الإيمانية يتحقق معنى شهود العبد للرب. وهذا هو الذي يحجزه عن المحرمات ويضبطه عن منهج الآداب والواجبات، إذ هو في كل أحواله وتقلباته، مع الله عز وجل في مراقبته له وذكره إياه وانسياقِهِ في مشاعر الخوف منه والحب له والرضا عنه والثقة به. وليس للتصوف النقي من معنى إلا أن يأخذ المسلم نفسه بما يوصله إلى مستوى هذا الشهود .. أو أن يأخذ نفسه بما يوصله إلى ثمرات الإيمان، أو يوصله إلى حقيقة معنى التوحيد، فهي ألفاظ شتى ولكنها جميعاً ذات دلالة واحدة.

وكان يرى، رحمه الله، في الرسالة القشيرية ما يبرز حقيقة هذا التصوف النقي، وما يكشف عن عميق ارتباطه بنصوص القرآن والسنة. ولذا فقد كان كثير المطالعة لها، وكثير الاستئناس بها، وعندما عجزت عيناه عن القراءة لما أصابهما من ضعف في السنوات الأخيرة من حياته، وكان يدعوني إلى أن أجلس فأقرأ له منها الشيء الكثير.

وعندما رغب جمع من الطلاب أن يختار لهم كتاباً من التصوف يدرسونه عليه، اختار لهم الرسالة القشيرية، وأذكر أنه درسها لمجموعات من الطلبة أكثر من مرة، وكنت أحضر معهم كثيراً من تلك الدروس.

علاقة التصوف بالطرق:

لم يكن هذا التقدير الذي كان يراه أبي للتصوف، مقتضياً بالضرورة أن يسري إلى الطرق الصوفية أيضاً. بل كان يرى أن التلازم منفك بينهما.

فالتصوف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذاً من كتاب الله وسنة رسوله، ذلك لأن السعي إلى الوصول إلى مرات الإيمان بالله في القلب واجب رسمه القرآن وأكدته السنة.

أما الطرق التي رسمها كثير من الشيوخ، كسبل تربوية لتحقيق الغاية ذاتها، فلم تخل فيما مضى ولا تخلو الآن من البدع.

ونظراً إلى أن أبي رحمه الله كان شديد الإصرار على التصوف النقي، من حيث إنه كان شديد الإصرار على الانضباط بنصوص القرآن والسنة، شديد الحذر من التورط في البدع، فقد كان ينبه دائماً إلى ضرورة التفريق بين التصوف الذي لا يمكن أن يحيا الإيمان في القلب إلا به، والطرق الصوفية التي كثيراً ما تكون بؤرة لكثير من البدع.

وكان يقول: إن الطرق الصوفية كلها لا تخلو من البدع، غير أن الطريقة النقشبندية أقلّها بدعاً.

لقد اتجه إليه كثيرون من داخل سورية وخارجها، آملين أن يعطيهم واحدةً من هذه الطرق الصوفية ليلتزموا بها، ولم يكونوا يشكون في استجابته لرغباتهم نظراً إلى حبه الشديد للتصوف وشدة التزامه بأصوله وآدابه. ولكنه كان يفاجئهم بالاعتذار، فإذا ألحوا، أكد لهم أنه غير أهل لذلك. وكان ينصحهم بدلاً عن ذلك بالإكثار من ذكر الله، وربما دلّهم على ورد يداومون عليه من ذلك، كما كان ينصحهم بتجنب المحرمات، لا سيما في المال والطعام، والتمسك بأهداب الكتاب والسنة ..

وكثيراً ما كان يزوره بعض مشايخ الطرق، من جهات شتى، فيخوضون معه في الحديث عن الطرق وآدابها ومشكلاتها، فكان يقول لهم بصريح العبارة: لقد تحول التصوف عند كثير من مشايخ الطرق إلى حرفة، تفوح منها راحة الدنيا وأهدافها. وكان يقول لهم: إنكم لا تسلِّكُون مريديكم إلى حقيقة التصوف وجوهره، وإنما تعطون كلاً منهم وظيفة من الأذكار، يؤدي كل يوم أعدادها المطلوبة، ثم يعود فينغمس في دنياه ولهوه كما يشاء، ويظل يعاني من أمراضه القلبية الكثيرة، دون أي تبدل أو تغير، وما التصوف الذي يصطبغ به المسلم إلا نقيض ذلك تماماً.

وهكذا، فقد كان والدي شديد الولع بالتصوف كثير التفاعل معه واضح الانضباط بسلوكياته. ولكنه كان في الوقت ذاته شديد الكراهية للبدع التي تتسرب عن طريقه، في كثير من الأحيان، وتترسخ في حياة كثير من الشيوخ والمريدين باسم التصوف أو تحت مظلته. ولقد قلت أثناء الحديث عن هجرته إلى الشام، أن من أسباب ذلك ما كان يفعله بعض شيوخ الطرق الذين كانت لهم دالّة عليه، من تكليفه بجمع ما يحتاج إليه الشيخ من الحطب لغرض التدفئة في الشتاء من بيوت المريدين وبساتينهم، ثم إرسالها إليه !.. وقد قلت أنه كان رحمه الله يشتري الحطب من ماله الخاص ثم يرسلها للشيخ دون أن يعلم.

هذا، ولقد كان التصوف في حياته معاناةً يمارسها لا مصطلحاتٍ وأقوالاً يرددها. فكان يظلّ يأخذ نفسه بما يجعله مستغرقاً في شهود الله ومراقبته بعيداً عن الأغيار إلا في حدود التعامل الشرعي معهم، وكان يظل يأخذ نفسه بالمجاهدة الدائبة كي يطهر قلبه مما كان يسميه سخائم الشهوات والأهواء والأمراض الخفية التي تبعد الإنسان عن الله.

وكان شديد الاشمئزاز من أولئك الذين يجعلون من التصوف ركاماً من الفلسفات الكلامية، يتحدثون عن الوجد والقبض والبسط، والفناء والبقاء، والأحوال، وهم عن حقيقة ذلك كله بعيدون وتائهون. وكثيراً ما كان يشبههم بمن راح يصف للناس الخمرة ومذاقها ونشوتها، وهو لم يحصل منها على أيّ مذاق قط.

والآن، وقد أوضحت فيما أحسب مدى تقديس أبي رحمه الله للتصوف النقي، وشدة تمسكه به، معاناة وسلوكاً، لا حديثاً عنه واحترافاً به، ينبغي ان أبين فيما يلي موقفه من أمور وقع كثير من الجدل فيها، أو بدع صبغت بصبغة التصوف وما هي منه في شيء.

الرابطة وأصلها:

معنى الرابطة فيما يقرره ويحرص عليه كثير من مشايخ الطريقة النقشبندية، هو أن يبدأ المريد في أول توجهه إلى ذكر الله عز وجل، فيتصور شيخه ويجعل من تصوره هذا فاتحة ذكره لله عز وجل .. ويوصي هؤلاء الشيوخ مريديهم بهذا العمل على أنه ضرورة لا بدّ منها. ووجه ضرورته في نظرهم أن المريد لا يستطيع أن يستلهم ذكر الله عز وجل إلا إذا تصور الشيخ أولاً، إذ إنه هو الذي يمكّنه من دخول الحضرة الإلهية ذاكراً ومراقباً.

هذه الرابطة، بهذا المعنى، كان أبي رحمه الله شديد الإنكار لها، وشديد الإنكار على من يدعون إليها من الشيوخ أو من يمارسونها من المريدين.

ولقد دعت المناسبة ذات يوم فتحدثت عن هذه الرابطة في أحد دروسي العامة، وأوضحت حرمة هذا التوجيه وهذا السلوك، وبراءة التصوف من هذه البدعة التي أقحمت فيها.

وكان أن بلغ كلامي هذا، سمع أحد شيوخ الطريقة النقشبندية في الجزيرة، فزار أبي ليشكوني إليه، ظاناً – نظراً إلى شدة تمسكه بالتصوف ودفاعه عنه – أنه يقول بهذه الرابطة المنكرة ويدافع عنها .. جلس الشيخ يروي لأبي ما بلغه من حديثي عن الرابطة وإنكاري لها، وكنت أسمع، وكان من عادتي أن أجنح إلى الصمت في مجلس والدي إلا إن طلب مني الكلام أو اقتضى الأمر ذلك.

ولما أنهى الشيخ حديثه، قال له أبي رحمه الله: إن هذا الذي قاله سعيد صحيح !..

ثم قال له: إن المسلم إذا جلس يذكر الله، يجب أن لا يستحضر حتى صورة رسول الله في ذهنه، فكيف بصورة الشيخ؟

ثم فصّل له القول في أصل هذه الرابطة فقال: إن الرابطة عند قدماء شيوخ الطريقة النقشبندية لم تكن تعني أكثر من حب المريد للشيخ، وهو حق لا اعتراض عليه، لأن علاقة الشيخ بالمريد، هي علاقة تربية وتسليك، ولن ينصاع المريد لتربية الشيخ إلا إن أحبه ووثق به. غير أن هذا الحب ما ينبغي أن يمحضه المريد إلا للشيخ الذي جمع بين العلم والسلوك واستقام على الرشد والخلق الإسلامي الحميد، وكان مثال الزهد والورع والتقوى.

ثم أشار أبي للشيخ إلى مكتوبات الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي، وأوصاه أن يعود إليه ليجد فيه تفصيل هذا الكلام الذي أوضحه له.

أقول: وإنما استحدث هذا المعنى البدعي الخطير للرابطة بعض المتأخرين من مشايخ الطرق، إمعاناً منهم في حملهم المريدين على تقديسهم وتعظيم شأنهم.

وقد سمعت كلاماً لهذا الشيخ الذي جاء إلى أبي يشكوني إليه في مسألة الرابطة، قد سجل على شريط بصوته، يقول فيه للناس من خلال درس عام (إن محبة الشيخ مقدمة على محبة الله عز وجل) !.. ثم قال لهم: لعلكم تستعظمون هذا الكلام وتعجبون منه .. فاعلموا أن سبب هذا الذي أقوله لكم هو أن الله من الكبر والعظم والسموّ بحيث لا يستطيع قلب المريد أن يستوعب حبه مباشرة دون سلوك سبيل إلى ذلك، وإنما سبيله أن يحب الشيخ، فإذا أحبه ساقه حبه له إلى حب الله عز وجل. ومن هنا يتجلى معنى قولنا إن محبة الشيخ أقدم من محبة الله !..

ولا شك ان هذا الكلام ينطوي على زيف كبير. فإن كل إنسان مفطور بمحض إنسانيته على محبة الله عز وجل، ولكن أحداً لم يقل بأن كل إنسان مفطور على محبة شيخ الطريق. وإن الصفات الثابتة لله عز وجل من عظمة وكبرياء وقدرة وباهر سطوة وواسع رحمة .. من شأنها أن تيسر السبيل المباشر إلى محبة الإنسان لهذا الإله الخالق، لا أن تبعده وتعقده. وإذا احب المريد شيخه، فبمحبته لله يحبه، لا العكس كما يوهم كلام ذلك الشيخ.

وقد كان الناس يغشون مجلس أبي يزيد البسطامي قدس الله روحه، وقد ظهرت شدة محبتهم له، فيناجي ربه قائلاً: أي رب .. إنك تعلم أنهم يزورونك أنت، ولكنهم رأوني عندك فأقبلوا إليّ.

هذا هو الكلام الحق المنبثق عن صدق العبودية لله، لا ذاك !..

ولو أن إنساناً لم يعرف الله ولم يحبه قط، فمحال أن يحب الشيخ الذي يتجمل أمام الناس بمحبته لله، إلا أنه يحبه لشيء من متعه وفوائده الشخصية أو الدنيوية.

آداب الذكر وموقفه من التثني فيه:

لم يُرَ والدي أكثر تخشعاً وأدباً وإطراقاً للرأس، منه في حالة ذكره لله عز وجل.

وكان يدعو إلى ذلك ويأمر به .. وكان يذهب إلى ما ذهب إليه جماهير العلماء من أن افتعال التثني أثناء ذكر الله محرم، وربما سماه في كثير من الأحيان رقصاً، وكان يستشهد في ذلك بكلام العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام، وبكلام ابن حجر الهيتمي في كف الرعاع. وبكلام آخرين.

غير أنه كان يحترم اجتهادات الآخرين، ولا ينكر عليهم شأنهم، ولكنه لم يكن يشترك معهم في القيام والتثني إن هم فعلوا ذلك.

ولقد كنت معه مرة في مجلس ضم جمعاً من أهل العلم، وفيهم ثلة كبيرة من الناس، كانوا يصغون إلى بعض المنشدين. وما هي إلا دقائق حتى هبوا جميعاً قائمين، وراحوا يذكرون الله مع التثني والانضباط بالنظام الذي يسمى (الحضرة).

لم يقم أبي معهم .. بل ظل جالساً يذكر الله معهم في مكانه، وكان الناظر إليه لا يرى فيه إلا كتلة من الأدب والخشوع والحضور مع الله عز وجل .. وفي الناس الذين كانوا يحضرون ذلك المجلس من يقول: إنه رحمه الله قام بعد ذلك، وقد تحكمت به حال أخرجته عن الالتزام بوضعه الإراديّ. ولكني لا أذكر شيئاً من ذلك الآن. ولست أنكره ولا أثبته.

أياً كان الأمر، فإن مما لا ريب فيه أنه لم يكن يفتعل التثني والقفز انسجاماً مع الذاكرين من حوله، ولم يكن يقرّه. ولكن إذا استفزه الحال وأخرجه من طوره فذلك شيء آخر.

وقد زار رحمه الله عمّان، في أوائل السبعينات، وكان ابني محمد توفيق بصحبته، وصلى الصبح في مسجد الحسين، وصادف أن كان في المسجد مجلس ذكر، فاشترك معهم، وبعد قليل قام الجميع إلى (الحضرة) فبقي جالساً حيث هو يذكر الله معهم بخشوع وأدب. وبعد قليل هبّ واقفاً ووضع كفاً على أخرى كهيئة المصلّي وقد ظهرت عليه علائم حال استبدت به، جعلته في ذهول عن كل ما حوله .. ولما جلس القوم وانتهت (الحضرة) ظل أبي واقفاً كما هو، على الحال ذاتها. مما لفت أنظار الناس إليه وزجت بكثير منهم في موجة الخشية والرهبة المنبثقين عن حقيقة ذكر الله عز وجل. وعن التأثر الذي يتركه في الكيان وفي المكان.

وصفوة القول أنه رحمه الله لم يكن ينكر القيام أثناء الذكر بحدّ ذاته، ولم يكن ينكر وجود إنشاد يصاحب الذكر عن قيام او جلوس، ولكنه كان ينكر التثني والقفز المفتعلين، أي عن قصد وإرادة.

صلته بعلماء دمشق

الركون إلى العزلة:

ذلك أنه رحمه الله، كان، منذ أن حطت به الرحال في دمشق واستقر به المقام فيها، ميالاً إلى العزلة، عازفاً عن الأنشطة والدخول في القضايا الاجتماعية أو الأمور الدينية العامة.

موقفه من محنة الشيخ حسن حبنكة:

ليس فينا من لا يعلم خبر المحنة التي أصابت شيخنا الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، والمقدمات التي كانت بين يديها، والأسباب التي اختلقت من أجلها.

وليس المهم، على كل حال، سرد أحداث تلك المحنة وبيان أسبابها، فلسنا بصدد شيء من ذلك الآن. إنما الذي يتصل ببحثنا هذا، هو بيان مدى تأثير تلك المحنة، على والدي رحمه الله، عندما أحيط علماً بها، وبيان الموقف الذي بادر إلى اتخاذه.

جاءه الخبر، على ما أذكر، وهو في مصلاه في المسجد، يقرأ ورده كعادته بين المغرب والعشاء وكان أول أثر ظهر عليه من جراء تلقيه لذلك الخبر، أن قنت في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء، قنوتاً خاصاً يتضمن الدعاء للشيخ والالتجاء إلى الله أن يكرم المسلمين بتفريج الكرب الذي حاق به .. ولا شك أن هذا القنوت فاجأ المصلين بما بعث في نفوسهم تأثراً عارماً لهذا الذي لم يبلغهم علمه إلا في الصلاة.

وبعد الصلاة عاد مستعجلاً إلى الدار، فجدد وضوءه، ولبس ثيابه، وحمل عصاه وأخبر أهل البيت أنه ذاهب إلى دار الشيخ حسن، لمعالجة هذه المشكلة، ولا يدري متى يعود.

وجلس فور وصوله إلى الدار في الغرفة الخارجية (البراني) يستوضح تفاصيل الخبر .. ثم ارتأى من حوله من الأقارب وأهل الدار، بَعْثَ رسل إلى نخبة من أهل العلم ووجهاء الناس، يطلبون منه باسمه، أي باسم والدي، أن يأتوا إلى بيت الشيخ للتداول في هذا الأمر. وتمت المحاولة ولكن لم يأت أحد.

وبقي أبي طوال تلك الليلة لا يبارح منزل الشيخ حسن، ولم تغمض له عين إلى الصباح. أمضى الليل كله بين مداولة وتشاور، وعبادة والتجاء وصلاة ..

وفي الصباح، كان الرأي، هو ان يتجه بنفسه إلى بيوت السادة العلماء للتشاور في الأمر، ولكن هذه المحاولة الثانية أيضاً لم تنجح، لم يتح لوالدي ولا لأحد ممن كانوا معه أن يدخلوا أياً من تلك البيوت أو أن يقابلوا أياً من أولئك السَّادة .. وعاد أبي ظهر اليوم الثاني إلى داره مرهق الجسم محطّم الأعصاب كئيب النفس ..

وسارت الأمور بعد ذلك على النحو الذي كتب لها أن تسير فيه، وأحيل الأمر إلى لطف الله الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، دون ان يخطر في البال شيء عن هذا الواجب الذي يحمّله أرحم الراحمين عبادَهُ المسلمين، ودون أن يخطر في البال أن رسول الله قد قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) متفق عليه.

عاد أبي إلى الدار محملاً من معاناته الفاشلة، كما كان يسميها، بثقل لا يتناهى من الدروس والعبر، كان يستعيدها ويتدبرها في كل مناسبة .. ولعلّها من أهم العوامل التي أعادته إلى عزلته التي انطلق منها، ثم لم يبارحها ولم يتحول عنها حتى وافاه الأجل المحتوم.

رأيه في الصلة بالحكام وكيفية النصح لهم:

كان رحمه الله مشبعاً في هذه المسألة – ككثير من المسائل الأخرى – بما يراه الإمام الغزالي في كتابه الإحياء. وخلاصة ذلك أن السعي إلى مواصلتهم ابتغاء الحصول على مغنم دنيوي أياً كان نوعه ممقوت ومذموم، وإن جاء ذلك مقنعاً بصورة الدعوة إلى الله أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الاتصال بهم لنصحهم وتذكيرهم بالله، مع الزهد في دنياهم والترفع عن أعطياتهم، فجائز ومبرور. وكان يستشهد في ذلك بحال كثير من العلماء الربانيين في العصر الأموي والعباسي.

وفي كل الأحوال، فإن الإمام أو الحاكم إذا استدعى أياً من الناس إلى مجلسه أو ملاقاته، وجبت الاستجابة، وعليه أن يلتزم في استجابته بآداب الإسلام ونهجه.

وكان يقرر ما انعقد عليه اتفاق جماهير العلماء، ودلّ عليه صريح الحديث الصحيح، من أن الخروج على الإمام محرم في كل الأحوال، إلا إن تلبس بكفر بواح، أي صريح وقاطع.

وكان يؤكد أن فسق الإمام، أو سلبه لأموال الناس، وتورطه في ظلمهم والجور عليهم، لا يبرر الخروج عليه. وكان يرى أن الحاكم مهما جار أو فسق، فلن يبلغ في جوره وانحرافه إلى أبعد مما وصفه رسول الله إذ قال: (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدايتي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس) فهل تتصور أن يبلغ الانحراف والفسوق بحاكم إلى أكثر مما وصف رسول الله في هذا الحديث؟ ومع ذلك فقد أجاب رسول الله حذيفة بن اليمان عندما سأله: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ فقال: (تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع).

ولما قامت في سوريا الفتنة التي كانت نتيجة اجتهاد خاطئ لبعض الحركات الإسلامية، أنكر عليها والدي رحمه الله عملها جملة وتفصيلاً .. وأنكر على قادتها اعتمادهم على التكفير الجماعي دون التزام ضوابط الشرع وحكمه.

ولما وقعت مجزرة مدرسة المدفعية بحلب، واتصل بي مسؤولون من وزارة الإعلام، يرغبون إليّ أن أعلن عن حكم الشريعة الإسلامية في ذلك، استشرت أبي فيما طلب إليّ، فأمرني بالاستجابة. ووجهني إلى الحكم الشرعي الذي يجب أن أقوله دون مواربة ولا حذر .. فاستجبت، وتحدثت حديثاً تلفزيونياً مفصلاً عن حرمة هذا العمل الذي تم الإقدام عليه. وأنه لا يدخل في أي من أنواع القتل المشروع، فلا هو داخل في قتل المرتدّ لأن الردّة لم تتحقق ولم تقم عليها أي بينة، ولا هو داخل في القتل قصاصاً إذ لم تثبت على المقتولين أي مسؤولية جرمية، ولا هو داخل في القتل بسبب الصيال أو الحرابة، لأنهم لم يكونوا صائلين ولا محاربين.

والحقيقة أن كل الذي قلته حينئذ كان بتوجيه وإيعاز من والدي رحمه الله.

وكان رحمه الله يرى ضرورة نصيحة الحاكم ما أمكن، وكان يعتقد أنها من أجلّ القربات إلى الله. على أن تكون صافية عن شوائب الطمع في مغنم أو الفرار من مغرم، وأن تكون في غاية الحكمة واللين.

نشاطاته العلمية:

عرف أبي رحمه الله بالبراعة في فقه الإمام الشافعي، وبالاطلاع الواسع على فقه الحنفية، وقد درّس كثيراً في كليهما، كما كان واسع الاطلاع على كثير من علوم الآلة كالمنطق وعلوم النحو والصرف. والأهم من ذلك تحقيقه في المسائل العلمية، لا سيما الفقهية. قد كان يسبر غورها ويتتبعها في مراجعاته وتأمله .. وكثيراً ما كان يبقى في تحقيق مسألة فقهية واحدة يومين وثلاثة أيام .. وكانت تصبح شغله الشاغل حتى ينتهي إلى قرار جازم بها.

وكان يأخذ على كثير من طلاب العلم وأساتذتهم سطحية النظر والبحث، وعدم التنقيب والتحقيق في النصوص ومدلولاتها.

ولم يكن يردّ طالب علم جاء ينبغي أن يأخذ عليه درساً في فن من الفنون .. وقد كان الطالب هو المقترح، في الغالب، للعلم الذي يريد أن يدرسه عليه. وأكثر ما كانوا يدرسون عليه، الفقه، والتفسير، وعلوم الآلة من منطق ونحو وصرف وبلاغة .. هذا بالإضافة إلى التصوف والرقائق، وقد درّس طائفة من الطلاب كتاب الرسالة القشيرية أكثر من مرة، ودرّسهم الحكم العطائية وبعضاً من شروحها، وقواعد التصوف للشيخ زرُّوق.

غير أنه اتجه في السنوات العشر الأخيرة من حياته إلى الاشتغال بالتصوف، ودراسة تراجم الربانيين من العلماء، فكان يشير إلى من يأتيه ليدرس عليه شيئاً من تلك العلوم الأخرى، أن يذهب فيبحث عن بغيته عند غيره ..

وكان آخر عهده بالتدريس، عكوفه على تدريس كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وكان يزدحم عليه في أخذ الدرس عنه جمع كبير من الناس من مختلف المستويات والمشارب، تغص بهم الدار في الغالب. وكان ذلك في يومي الاثنين، والثلاثاء، من كل أسبوع .. ولما ختم الكتاب طاب لوالدي رحمه الله وللجمع الذي كانوا يتلقونه عليه أن يعودوا فيقرؤوه عليه من جديد .. والذي أذكره أنه استمر في تدريسه على هذه الحال قرابة ثماني سنوات.

العودة إلى العزلة بعد النشاط:

لم يكن سبب ركونه إلى العزلة وابتعاده عن المجتمع وأنشطته، ضموراً في وعيه الاجتماعي أو ضعفاً في ذاكرته وفكره .. فإن شيئاً من ذلك لم يظهر في الفترة التي جنح فيها إلى الاعتزال عن الناس.

إذن فما السبب؟

كنت قد قلت: إن خيبة أمله، رحمه الله، في معالجة المحنة التي وقع فيها شيخنا الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، تلك الخيبة التي جعلته يرجع إلى داره كسِيفَ البال كئيب النفس، هي التي كونت عنده أول عوامل الاشمئزاز من التلاقي والتعاون على صعيد معالجة المشكلات والانتصار للحق .. فأي قيمة تبقى للتلاقي والأنشطة الاجتماعية، إذا لم يتحقق شيء من جدوى ذلك كله في معالجة تلك المحنة الكبرى ولم يظهر أي تعاون نحو إذابتها أو القضاء عليها.

ثم إن المشاعر أخذت تزداد انتشاراً في نفسه مع الأيام، ومع اطلاعه على المزيد من عوامل الاشمئزاز .. كان رحمه الله يضيق ذرعاً بالمجاملات التي لا تحمل في طيها أيّ رصيد، وهي شيء يتقنه مع الأسف كثير من أهل العلم. وكان يحس، بمشاعره المرهفة، أن كثيراً من هؤلاء الناس يكيلون له عبارات الثناء والتعظيم والإعجاب بالصلاح والعلم جزافاً .. حتى إذا خرجوا من مجلسه، وضعوه في تقديراتهم وحساباتهم في ميزان آخر.

وكثيراً ما كان يواجه هؤلاء المداحين له والمثنين عليه، بالتعبير عن تقديره لحقيقة مدحهم بعبارات صريحة وربما قاسية.

كان مما يقوله لهم مراراً: تقولون أمامي وفي مجلسي: شيخ ملا .. شيخ ملا .. جئنا لنتبارك .. وأنا أعلم أن كلام الشيخ ملا ليست له قيمة حقيقية في نفوسكم .. إنني على ألسنتكم قطب زمانه وولي الله على أرضه، وفي نفوسكم درويش يجامل بكلمتين.

وكثيراً ما كان يردد كلمة قالها له مرة شيخ محمد زين العابدين رحمه الله، لقد اسكروني بالمديح والثناء، ثم ما هو إلا أن جعلوني جسراً لمصالحهم وأغراضهم.

وكانت له على ذلك دلائل من مجالس كثيرة كانت تطرح فيها قضايا للمناقشة، ثم يتم الوصول فيها إلى اتفاق بحسب الظاهر، فيما ينفض المجلس حتى تظهر المحاور المتناقضة، وإذا بالمجلس الذي تم الاتفاق فيه ظاهراً، قد توازعته تلك المحاور المتناقضة باطناً، وإذا بساعات البحث والنقاش ذهبت كلها أدراج الرياح !..

وكان من أخص طبائع والدي، رحمه الله، كراهية المجاملات الزائدة والتفنُّنِ في عبارات المديح والإطراء، حتى ولو كانت نابعة عن مشاعر داخلية صادقة، فكيف إذا أحسّ، أكثر من مرة، أنها مجرد ألفاظ مزوقة لبعث الحرارة اللازمة في المجالس واللقاءات؟

فهذا هو السبب الذي بعث في نفسه رحمه الله، مشاعر التبرم والاشمئزاز من تلك اللقاءات والأنشطة الاجتماعية، التي تقوم على رصيد لا حدّ له من المجاملات والمدائح (الدبلوماسية) الفارغة .. وعذره الذي كان يقنعه بالانقطاع عن تلك الاجتماعات، أنه إما أن يجاري القوم فيها فيبادلهم الكلمات بمثلها، وذلك في نظره انحدار إلى تمثيل مهين وركون إلى لون من المداهنة والنفاق، وإما أن يخرق تلك الأقنعة التمثيلية ويواجههم بما وراءها، وقد يجرّ ذلك إلى فتنة او كراهية لا خير ولا جدوى من ورائهما .. وإنما الحلّ الوحيد في هذه الحالة هو أن يعتزل كل تلك اللقاءات والاجتماعات مستغنياً عن الأنشطة التي تدعو إليها أو تأتي نتيجة لها.

غير أن هذه العزلة التي فرضها أبي على نفسه، كانت من طرف واحد، فلا جرم أنه لم يكن يغلق بابه دون زيارة زائر أو حاجة قادم. إلا إن يكون ذلك في الأوقات التي يكون مشغولاً فيها بشأن نفسه، كفترة ما بين المغرب والعشاء، فإنه لم يكن يكلم فيها أحداً، ولم يكن يسمح لأحد أن يشغله بأي حديث، وكساعة ما بعد العشاء، إلا لضرورات أو حاجات دينية.

فأما فيما عدا هذين الوقتين من أوقات راحته وجلوسه، فكان يستقبل أي زائر. ولكنه كان يلجأ في أكثر أحيانه إلى السكوت ويكتفي بالإصغاء، لا سيما عندما يخوض الجالسون في القضايا الدُّنيويَّة .. كان يتشاغل عن الحديث عندئذ بما هو في صدده من ذكر وتسبيح؛ وربما أطالوا الحديث في شؤونهم تلك، أو خاضوا في غيبة أو نحوها، وعندئذ يقاطعهم، ويبدأ حديثاً حاراً من النصح والتذكير بالمصير، والتنبيه إلى عظيم قيمة الوقت الذي ينقضي من عمر الإنسان، وأنه رأس ماله الأوحد في هذه الحياة.

وعلى كل حال، فإنه لم يكن يسمح لأحد أن يزعجه في حديث عن مشكلة اجتماعية، أو أن يستدرجه ليقول رأيه في معالجة مسألة استشرى فيها خلاف بين فئات أو أقران؛ فإن حاول ذلك محاول، قال له، وقد بدا عليه الانزعاج والامتعاض:

يا هذا، إن عقلي لا يكفيني لحلّ مشكلاتي، وللنظر في شأني وما أنا مقبل عليه. فدعني – يرحمك الله – وما أنا فيه، وابحث لحلّ هذه المعضلات عن رجل غيري.

وإذا حُدِّثَ بمسألةٍ علمية ثار من ورائها جدل وشقاق بين الناس، استعفى عن الخوض فيها، مهما كان فيها للخلاف والاجتهاد مجال، محافظةً منه على عزلته أن لا تُخْتَرَقَ وابتعاداً عن مشكلات القال والقيل.

وأذكر أن صديقنا الراحل الدكتور محمود النحلاوي رحمه الله – وكان شديد القرب من والدي عظيم الحب له – عزم على إقامة حفل متميز في داره ابتهاجاً بمولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورغب أن تلقى في الحفل محاضرة مؤثرة جامعة. وجال في خاطره أن يسجل الحفل كله على (الفيديو) ليستفيد أكبر عدد ممكن من خير ذلك الحفل، فطلب مني أن أستأذن والدي في ذلك. وكان يمرّ رحمه الله بهذه الفترة التي أتحدث عنها. ولما استأذنته قال لي:

يا بني: هذا الذي تحدثني عنه شيء جديد لا علم لي به، وأنا أسمع من حقيقته وآثاره، ما يجعلني في حيرة من أمره، ويمنعني من إصدار حكم جازم فيه .. والحلّ لمثل هذه المشكلة أن يتعاون جمع من الفقهاء المتمكنين المتبصرين بحقيقة هذا الجهاز وعمله، فينظروا في الأمر ويجتهدوا فيه، ثم يدلوا بالقرار الذي يهديهم الله إليه؛ أما أنا فدعني وما أنا فيه من النظر في شأن نفسي.

أما الأحكام التي لا مجال للنظر والاجتهاد فيها، فلم يكن يسمح لأحد أن يخوض فيها مخاضة تلاعب أو تدليس، بل كان يبذل كل ما يملكه من جهد لبيان الحق، والوقوف في وجه التلاعب والعبث به، وإن اقتضاه الأمر أن يخرج عن عزلته وخلوته.

وإن في قصة المقالين السابق ذكرهما لمثالاً على ذلك. وقد كانت كتابته لهما ودفعها إلى النشر في هذه المرحلة ذاتها.

وكان يتحدث، بين الحين والآخر، عن ندمه الشديد على تلك السنوات التي قضاها فيما لا طائل منه، من القيل والقال وشقاشق الكلام. وكان يرى فيها أيام ضياع ذهبت من عمره سدى.

وكنا نقول له: بل كانت إن شاء الله تجربة سير إلى الله على طريق من طرق الجهاد. وإنما مآل الأعمال حسب النيات الدافعة إليها.

مراحل المرض . . ثم الوفاة

وعيه المتألق أثناء مرضه:

كان قد بلغ أبي من العمر في السنة الأخيرة من حياته مئة وأربعة أعوام، حسب ما كان قد انتهى إليه تحقيقه في ذلك. وكان بحمد الله عز وجل في أعلى درجات الوعي والقدرة على المحاكمة العقلية والدقة في تقدير الأمور، وقد ذكرت فيما مضى نماذج من ذلك كله في حياته، بل في هذه المرحلة الأخيرة منها. ولم يغير المرض الذي لازمه قرابة عام وعشرين يوماً من حاله هذا شيئاً.

كانت تمرّ به مناسبات يخوض الجالسون من حوله بسببها في أمور فقهية يتذاكرون فيها على سمع منه أو يسألونه عنها، فكان يجيبهم عنها معتمداً على ذاكرة ممتازة ومحاكمة دقيقة.

وربما بلغته مواقف من بعضهم، لا تتفق في قناعته مع موازين الشريعة وأحكامها، كموقف أولئك الذين استنكروا اشتراكي مع الدكتور التيزيني في ندوة حول الفلسفة المادية والتراث، فردّ عليهم بأدق وأبلغ بيان، وقد سبق أن ذكرت كلامه الذي قاله في ذلك.

كان يتذكر أثناء مرضه ذاك أدق آداب السنة النبوية، في الوقت الذي كنا من حوله نشرد ونتيه عنها .. وعلى سبيل المثال كان أحد أفراد الأسرة: أنا، وابني توفيق يجلس إليه ليلبسه الجورب، فيذهل عن آداب السُّنَّة ويقدم اليسرى على اليمنى، فيصيح والدي: اليمين .. اليمين .. وربما قالها مغضباً إذا تكرر الذهول.

وفي إحدى المرات بادر الدكتور محمود النحلاوي رحمه الله، وكان شديد الملازمة لأبي في هذه المدَّة كلها وكان واحداً من أخص الملازمين لدروسه، ليعينه على القيام، قائلاً: يا رسول الله.

فقال له أبي: قل يا الله !..

وبهذه المناسبة ألفت النظر إلى أنه رحمه الله كان يفضل التوسل برسول الله على الاستغاثة به. إذ التوسل خطاب لله ودعاء موجه إليه. أما الاستغاثة فالخطاب فيه موجه إلى رسول الله، وصيغة الدعاء موجهة أيضاً إليه، وفي ذلك شيء من سوء الأدب مع الله، وصورةٌ تخالف وجوب السؤال من الله وحده. وهو لم يكن يحرم الاستغاثة ولكنه كان يفضل صيغة التوسل عليها.

لقد جالت بذهنه هذه المحاكمة كلها في اللحظة التي بادر الدكتور النحلاوي لينهضه قائلاً: يا رسول الله.

وصلى الدكتور النحلاوي مرة إماماً بأبي – ولم يكن يصلي إماماً في السنوات الأخيرة – فلما انتهى من صلاته، أخذ رحمه الله ينبهه إلى أدق آداب الصلاة ويعتب عليه إهماله أو نسيانه لبعض منها.

انصرافه الوجداني إلى الله:

الشيء الوحيد الذي تسبب عن هذا المرض الطويل الذي انتابه، وتجلّى في طبعه وكيانه، انصرافه الكلي، من حيث الفكر والشعور والتصرفات، إلى الله عز وجل .. كانت هذه الحال تغالب مرضه وتتفوق تفوقاً كبيراً على مشاعر آلامه. فلم يكن يراه أحد من أهل البيت أو الزائرين، إلا وهو في حالة تذكر وفكر وشهود مع الله عز وجل.

وكثيراً ما كان يكلمه أحدنا، بسائق المناسبة وبمقتضى الحال، في بعض شؤون الدنيا، فيعتب عليه قائلاً: إنني قضيت حياتي الماضية كلها محاولاً ومجاهداً أن أكون مع الله متجرداً عن الأغيار في هذه الساعات الأخيرة، لهذه الساعات الأخيرة قضيت، فيما قضيت به، شبابي وأيام عمري، فلماذا تشغلونني عن الله في ساعاتي الأخيرة هذه؟

كان من أمتع الساعات التي تمرّ به بعد أن يؤدي وظائفه وأوراده من الأذكار وتلاوة القرآن، تلك التي يصغي فيها من جهاز تسجيل إلى صوت عبد الرؤوف الحلاق رحمه الله، أو محمد أديب الدايخ، وهو ينشد بعض القصائد الوجدانية التي كان يطيب له سماعها، بل كان ينتشى ويؤخذ بها.

ولم يكن هذا شأنه في أيام مرضه فقط، بل كانت دائماً ملتاع القلب بمزيج من حب الله والشوق إليه، والتذلل والافتقار بين يديه؛ ولكن لوعته هذه ازدادت اضطراماً بين جوانحه في السنوات الأخيرة من حياته.

غرائب قبل الوفاة:

وقبل وفاته بعشرة أيام، أو أقل، أصبح يسمع أصواتاً لا نسمعها نحن !..

كان إذا استيقظ لصلاته قبل الفجر، وحان وقت السحر، قال لنا: إنه لعجيب حال هؤلاء الذين يغنون ويقرعون طبولهم في هذا الوقت، دون أن يقدّروا حال النائمين من حولهم !!..

قلت له – وأرهفت السمع جيداً – ولكني لا أسمع شيئاً. فنظر إليّ متعجباً، وقال: ألا تسمع صوت هذه التي تغني؟ قلت لا أسمع .. ماذا تقول يا ترى ؟.. وأصغى قليلاً ثم قال لي: لا أفهم كلامها.

وناديت توفيق وآخرين من أهل البيت، وسألتهم هل يسمعون شيئاً في هدأة ذلك الوقت؟ ولكن أياً منا لم يكن يسمع أي شيء، اللهم إلا والدي، فقد كان يعجب من عدم سماعنا، ويؤكد لنا أنه يسمع غناء مصحوباً بدفّ.

وكان هذا يتكرر في مثل ذلك الوقت من السحر، لعدة أيام .. ينبئنا عما يسمع، وهو مستيقظ يتمتع بكامل وعيه، دون أن نسمع نحن شيئاً .. وكما قلت: فإن أبي لم يفقد شيئاً من وعيه وعميق إدراكه بل وقدرته الذاتية على التحرك لأعمال الوضوء والصلاة ونحو ذلك إلى ساعة وفاته !..

أما قبل وفاته بأقل من أسبوع فيما أذكر، فقد دخلت غرفته وقت صلاة الفجر، أسأله عن حاله، ونظرت، فإذا وجهه يفيض ابتهاجاً وسروراً.

قال لي: لقد رأيت الليلة رؤيا، إذا صدَقَتْ، وكان الأمر كما رأيت حقاً، فإنها أثمن من كل كنوز الدنيا والآخرة. قلت له: خيراً رأيت إن شاء الله.

قال لي: رأيت نفسي في عرصات القيامة، والكون من حولي مليء بناس لا أعرفهم ... وأوقفت بين يدي الله عز وجل. فقال لي: كنت تعظمني في الدنيا، فاليوم أكرمك وذريتك ..

من الواضح أن هذه الرؤيا العجيبة، كانت من نوع البشرى التي وعد الله بها عباده الصالحين أن يكرمهم بها في الحياة الدنيا قبيل رحيلهم منها، وذلك في قوله عز وجل (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

وفي يوم الأحد الموافق لـ 18 شوال 1410 عانى رحمه الله من نزف هضمي حاد .. وفي مساء اليوم التالي زاره جَمْعٌ من الأطباء أذكر منهم الدكتور عبد الملك الكزبري، والدكتور محمود

النحلاوي والدكتور هشام الحوراني، وأحْدَقوا به، وهو جالس في فراشه، يسمعون منه، ما لم أعد أذكره من أحاديث المشاعر والوجدان .. واقترح الدكتور عبد الملك أن يُغَذّى تلك الليلة عن طريق السيروم، واستأذنه في أن يعلق له السيروم ويوصله بالوريد. فقال له أبي: أرجو أن تنتظروني وتتركوني وشأني هذه الليلة فقط !.. ولكن الدكتور الكزبري رجاه بلطفه المعهود أن يأذن لهم بذلك. وتم ذلك فعلاً.

وقام والدي فجر يوم الثلاثاء، بل قبيل الفجر، كعادته، فخرج إلى الحمام والميضأة فأسبغ الوضوء، وصلى صلاة الصبح. وقرأ ما تيسر له من أوراده التي كان يقرؤها.

ثم عاد إلى فراشه في وقت الضُّحى، فنام كعادته في ذلك الوقت.

خرجت مع الأخوة الأطباء عندئذ إلى الغرفة الكبرى المقابلة للغرفة الصغيرة التي كان ينام فيها والدي. أذكر منهم الدكتور هشام الحوراني، والدكتور النحلاوي والدكتور عيسى المرزوقي فيما أتصور.

وإنّا لكذلك، ولم يمض على نومه أكثر من نصف ساعة، إذ سمعت نداءً بصوت عال يقول: سعيد !.

فهرعت إلى غرفته وتبعني من كان موجوداً آنذاك ..

كان جالساً في منتصف السرير، وقد تدلّى جزء من رجليه نحو أرض الغرفة، ونظر إليّ وهو يحرك شفتيه بكلام لم أفهمه .. ظننت أنه يريد الخروج إلى الحمام، وحاولنا مساعدته، ولكنه ما لبث أن عاد فتمدد في فراشه، وفي اللحظة ذاتها أصبح يغرغر، وراحت عيناه تجحظان إلى الأعلى .. وما هي إلا دقيقة واحدة .. وأسلم من بعدها الروح.

لقد كان يقيني الذي لم أشك فيه للحظة واحدة. أنه رحمه الله عاين ملك الموت، وعلم أن قد حان الفراق الموقوت، فناداني بأعلى صوته من الغرفة المقابلة كي أشهد لحظات الوداع، ولا أفاجأ به ميتاً دون نظرات مودعة. وربما كان ذلك بإيعاز أو بإذن من ملك الموت ذاته.

ولا ريب أن الكلمات التي يتمتم بها عندما رآني، كانت تتضمن الإخبار عما يرى، وإعلامي بأن قد حان التوجه إلى لقاء الله .. ولكنها رهبةُ الموت، شلت قوة حباله الصوتية، وأحالت الكلمات إلى تمتمة على الشفتين.

كانت وفاة والدي ضحى يوم الثلاثاء الواقع في 20 شوال عام 1410 هـ الموافق لـ 15 أيار عام 1990م.

وفي ظهر ذلك اليوم كانت جنازته تخترق شوارع دمشق حملاً على الأعناق، ليدفن في مثواه في باب الصغير، في المدفن الصغير الذي يرقد فيه بعض رجال العلم من أعيان دمشق وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم الغلاييني رحمهم الله جميعاً.

كانت جموع الناس على أطراف الشوارع تنظر في تأثر فريد من نوعه، إلى النعش المعرّى من كل شيء إلا عن رداء أبيض سجّي به، واللوحة البيضاء التي أثبتت في مقدمته وكتب عليها بوصية ملحّة ممن يرقد في داخل النعش:

أتيتك بالفقر يا ذا الغنى وأنت الذي لم تزل محسنا

توفي، وترك ورائه وصية عامة خاطب بها أولاده، ومن يمكن أن يبلغهم كلامه: هذا هو نصها:

"الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه الكرام، وكل مؤمن اتبع سنته. أما بعد، فأوصي اولادي وكلَّ من يسمع كلامي، أن لا يتخذوا من دون الله ولياً ولا نصيراً، ولا حاكماً ولا قديراً. وأسأل الله تعالى أن يفهمهم معنى كلامي وأن يدبّر أمرهم تدبيراً".

مستخلص من كتاب هذا والدي.